سلاطين وبكوات

بقلم

محمد عرموش

سلاطين وبكوات

تاريخ سقوط دولة المماليك في مصر

بقلم

محمد عرموش

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف تحول سلاطين المماليك إلي بكوات في ظل الحكم العثماني لمصر ؟

وما هي أسباب سقوط الدولة المملوكية وخضوعها للدولة العثمانية بعد هزيمة السلطان الأشرف قنصوة الغوري في معركة مرج دابق وانتصار السلطان العثماني سليم الأول ؟

وكيف كانت طبيعة العلاقة بين الدولتين الكبيرتين في العالم الإسلامي ؟

وكيف حاولت الدولة المملوكية منع سقوط الأندلس ؟

ولماذا ساءت العلاقة بينهما بعد أن كانت علاقة تعاون ومودة وتبادل للرسائل والدعم ؟ ومتي حدث ذلك ؟

وهل كانت هزيمة المماليك من البرتغاليين لها دور في فقد سيطرتهم علي البحر الأحمر ؟

وهل كان لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح دور في الانهيار الإقتصادي لدولة المماليك ؟

وهل انتشر الفساد في الدولة المملوكية في أواخر أيامها ؟

وما هي علاقة الدولة المملوكية بالدولة الصفوية الشيعية ؟

وما طبيعة المعارك التي دارت بين العثمانيين والصفويين وموقف المماليك منها ؟

وما هو دور خاير بك نائب حلب في هزيمة المماليك في مرج دابق ؟

وماذا حدث بعد قيام المماليك بسلطنة الأشرف طومان باي بعد التأكد من وفاة السلطان الغوري ؟

وكيف تمت هزيمة المماليك أمام العثمانيين للمرة الثانية في معركة الريدانية ؟

وكيف قاد السلطان طومان باي المقاومة داخل مصر إلي أن تم أسره وشنقه علي باب زويلة ؟

وما الإجراءات التي اتخذها السلطان العثماني في مصر مع بداية حكمه لها ؟

وما هي ظروف تعيين خاير بك كأول والي علي مصر تحت الحكم العثماني ؟

وكيف تغيرت أحوال مصر بعد أن أصبحت ولاية عثمانية بعد أن كانت سلطنة مملوكية ؟

وماذا حدث للخلافة العباسية التي كان مقرها القاهرة ؟ وكذلك قضاة المذاهب الأربعة ؟

وماذا حدث للمماليك في مصر تحت الحكم العثماني ؟

وكيف تكونت فرق الجيش العثماني في مصر وأين استقرت وما هي علاقتها بالوالي العثماني والمماليك ؟

وكيف استعادت الدولة العثمانية السيطرة علي العالم الإسلامي ومنعت انتشار المد الشيعي ؟

ومن المؤرخ الذي عاصر كل تلك الأحداث وكتب عنها وسجل ما شاهده ؟

كل هذه الأسئلة سنحاول البحث عن إجابات لها تكون موثقة من المراجع التاريخية لنجد التفسيرات الأقرب إلي الصحة حتي يمكننا الإلمام بقدر المستطاع بما حدث في تلك الفترة المهمة من تاريخ مصر بل من تاريخ الأمة الإسلامية بشكل عام

وأسأل المولي عز وجل أن يوفقنا جميعًا ويهدينا إلي سواء السبيل ، وهو المستعان

محمد عرموش

محتويات الكتاب

Contents

محتويات الكتاب ٥

الفصل الأول دولة المماليك البرجية في مصر ٧

أصل المماليك البرجية ٧

الظاهر برقوق يؤسس دولة الجراكسة ١٠

فتح قبرص ومحاولات فتح رودس وأحداث أخري في عصر المماليك البرجية ١٣

الأشرف إينال يعاصر السلطان العثماني محمد الفاتح ١٥

الأشرف قايتباي وبدء التوتر مع العثمانيين ١٧

محاولة إنقاذ الأندلس في العصر المملوكي ٢١

السلطان الأشرف قنصوة الغوري ٢٣

حروب السلطان سليم الأول واسماعيل الصفوي ٢٩

معركة مرج دابق ٣٥

وصف اسلوب ابن اياس الحنفي ٣٧

الأشرف طومان باي ونهاية دولة المماليك البرجية في مصر ٣٩

سليم الأول يعرض علي طومان باي أن يكون نائبه في مصر ٤١

معركة الريدانية (منطقة العباسية الحالية) : ٤٢

الفصل الثاني الحكم العثماني لمصر ٤٦

ملخص العصر العثماني ٤٦

إجراءات سليم الأول في مصر ٥٠

المماليك من سلاطين إلي بكوات ٥٠

الجمع بين الخلافة والسلطنة ٥٢

الوالي العثماني سنان باشا ٥٤

نماذج لبعض أمراء مماليك العصر العثماني ٥٥

حركة علي بك الكبير ٥٧

بركة الأزبكية ٥٩

الأمير عبد الرحمن كتخدا ٦٠

شاهبندر التجار في العصر العثماني ٦٢

البكوات المماليك يواجهون جيش الحملة الفرنسية..... ٦٤

نهاية البكوات المماليك ٦٦

الملحق (أ) أسماء سلاطين المماليك : ٦٩

الملحق (ب) مصطلحات مملوكية ٧٢

المراجع..... ٨٠

الفصل الأول

دولة المماليك البرجية في مصر

أصل المماليك البرجية

لنتحدث عن أصل المماليك البرجية علينا أن نعود إلي عصر قلاوون الكبير عميد العائلة القلاوونية ونصعد إلي القلعة ونجلس معه وهو يفكر في موضوع خطير ومهم بالنسبة له ، فقد قرر الاعتماد علي قوات جديدة من نوع خاص وتتلخص الفكرة في شراء نوع جديد من المماليك بعيدًا عن جزيرة الروضة وما تحتويه من مماليك بحرية ، وقام بالفعل بشراء مماليك جدد وجعل إقامتهم في أبراج القلعة وعزلهم عن الناس ولذلك تم تسميتهم بالمماليك البرجية

وإليك بعض ما قرأت عن هذا الموضوع (عزم السلطان المنصور قلاوون "٦٧٩-٦٨٩ هـ / ١٢٧٩—١٢٨٩ م " علي تكوين فرقة جديدة من المماليك تدين له بالولاء والطاعة ويعتمد عليها وتختلف في أصولها عن فرقة المماليك الأخرى التي غلب عليها عنصر الأتراك ولذلك أقبل علي شراء المماليك الجراكسة من المنطقة الواقعة بين بحر قزوين وبين البحر الأسود ، وأسكنهم في أبراج القلعة – فسموا البرجية تمييزًا لهم عن المماليك البحرية الذين أقاموا في جزيرة الروضة ، وساعد قلاوون علي تحقيق رغبته كثرة الجركس في أسواق الرقيق – فضلًا عن رخص سعرهم آنذاك بالنسبة للعناصر التركية)[١] ولقد كان السلطان يهتم بهم وبأحوالهم كما قال المقريزي

فقد كتب المقريزي عن اهتمام أسرة قلاوون[٢] عمومًا بالمماليك البرجية ثم شرح كيف انخفض مستواهم بعد أن انخفض مستوي الاهتمام بهم ، وإليك ما كتبه عن المكان المخصص لإقامتهم بالقلعة :

(الطباق بساحة الإيوان) : عمّرها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأسكنها المماليك السلطانية وعمر حارة تختص بهم وكانت الملوك تعني بها غاية العناية ، حتي أن الملك المنصور قلاوون كان يخرج في غالب أوقاته إلي الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ويأمر بعرضه عليه ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته فمتي رأي فيه عيبًا اشتد علي المشرف والاستادار ونهرهما وحل بهما منه أي مكروه ، وكانت المماليك أبدا تقيم بهذه الطباق لا تبرح فيها ، فلما تسلطن الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، سمح

---

[١] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٤

[٢] الملحق (أ) المرفق يوضح أسماء سلاطين المماليك

للمماليك أن ينزلوا من القلعة في النهار ولا يبيتوا إلا بها ، فكان لا يقدر أحد منهم أن يبيت بغيرها ، ثم إن الملك الناصر محمد بن قلاوون سمح لهم بالنزول إلي الحمام يومًا في الأسبوع فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدام ثم يعودون آخر نهارهم ولم يزل هذا حالهم إلي أن انقرضت أيام بني قلاوون ، وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة : أولها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه علي السلطان ونزله في طبقة جنسه وسلمه لطواشي برسم الكتابة ، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم ، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالي ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار ، أي أن المنصور قلاوون أراد أن يكون برنامج إعداد المملوك كما كان علي عهد الملك الصالح كما تم إعداده هو شخصيًا وأن يأتي المملوك صغيرا في السن

وكان الرسم إذ ذاك ألا تجلب التجار إلا المماليك الصغار ، فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه وأقرأه فيه مقدمه ، فإذا صار إلي سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتي يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه وإذا ركبوا إلي لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم ، فينقل إذن إلي الخدمة ويتنقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلي أن يصير من الأمراء ، فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه واشتد ساعده في رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرن علي ركوب الخيل ، ومنهم من يصير في رتبة فقيه عارف أو أديب شاعر أو حاسب ماهر، هذا ولهم أزمة من الخدام وأكابر من رؤوس النوب : يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافي ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه علي حركاته وسكناته ، فإن عثر أحد من مؤدبيه الذي يعلمه القرآن أو الطواشي الذي هو مسلم إليه أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه ، علي أنه اقترف ذنبًا أو أخل برسم أو ترك أدبًا من آداب الدين أو الدنيا قابله علي ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه ، فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار وتعدي ، وكانت لهم الإدارات الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلاوات والفواكه والكسوات الفاخرة والمعاليم من الذهب والفضة بحيت تتسع أحوال غلمانهم ويفيض عطاؤهم علي من قصدهم

ثم لما كانت أيام الظاهر برقوق راعي الحال في ذلك بعض الشئ إلي أن زالت دولته في سنة أحدي وتسعين وسبعمائة ، فلما عاد إلي المملكة رخص للمماليك في سكني القاهرة وفي التزوج فنزلوا من الطباق من القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا إلي البطالة ونسوا تلك العوايد ، ثم تلاشت الأحوال في أيام

الناصر فرج بن برقوق وانقطعت الرواتب من اللحوم وغيرها حتي عن مماليك الطباق مع قلة عددهم ورتب لكل واحد منهم في اليوم مبلغ عشرة دراهم من الفلوس فصار غذاؤهم في الغالب الفول المصلوق عجزا عن شراء اللحم وغيره ، هذا وبقي الجلب من المماليك إنما هم الرجال الذين كانوا في بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد في تنور خباز ومحول ماء في غيط أشجار ونحو ذلك واستقر رأي الناصر علي أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم بل يُتركون وشئونهم

وبالطبع كان هذا القرار له عواقب وخيمة ، فبدلت الأرض غير الأرض وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدرًا وأشحهم نفسًا وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم إعراضًا عن الدين ما فيهم إلا من هو أزني من قرد وألص من فأرة وأفسد من ذئب ، لاجرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلي مجري الفرات بسوء إيالة الحكام وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولي الأمر حتي أنه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام مالا يتدارك فرطه ، وبلغت عدة المماليك السلطانية في أيام الملك المنصور قلاوون ستة آلاف وسبعمائة فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل عدتها عشرة آلاف مملوك وجعلهم طوائف فأفرد طائفة الأرمن والجركس وسماهم البرجية لأنه أسكنهم في أبراج بالقلعة فبلغت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة وأفرد جنس الخطا والقبجاق وأنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية والزمرذية وجعل منهم جمدارية وسقاة وسماهم خاصكية[٣] وعمل البرجية سلاحدارية وجمقدارية وجاشنكيرية وأوشاقية ، ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاوون بجلب المماليك من بلاد أزبك وبلاد توريز وبلاد الروم وبغداد وبعث في طلبهم وبذل الرغائب للتجار في حملهم إليه ، ودفع فيهم الأموال العظيمة ثم افاض علي من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامة الأصناف دفعة واحدة في يوم واحد ولم يراع عادة أبيه ومن كان قبله من الملوك في تنقل المماليك في أطوار الخدم حتي يتدرب ويتمرن كما تقدم وفي تدريجه من ثلاثة دنانير في الشهر إلي عشرة دنانير ثم نقله من الجامكية إلي وظيفة من وظائف الخدمة ، بل اقتضي رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة ، فأتاه من المماليك شئ كثير رغبة فيما لديه حتي كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذي يجلبه إلي مصر وبلغ ثمن المملوك في أيامه إلي مائة ألف درهم فما دونها وبلغت نفقات المماليك في كل شهر إلي سبعين ألف ثم تزايدت حتي صارت في سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، مائتين وعشرين ألف درهم٤

---

[٣] الملحق (ب) المرفق يوضح المصطلحات التي كانت شائعة في العصر المملوكي

٤ نقلًا عن كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية – الجزء الثالث – تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق محمد زينهم ، مديحة الشرقاوي – مكتبة مدبولي

هذا يعني أن المنصور قلاوون الذي هو من المماليك البحرية اهتم بإعداد المماليك البرجية ولم تستمر هذه الرعاية بعد وفاته ، ولكن موضوع السماح لهم بمغادرة القلعة يعتبر تطور كبير نسبيًا ، فكانوا يغادرون القلعة (بشرط ألا يبيتوا خارجها مما أدي إلي وقوفهم علي الأحوال العامة بعد أن كانوا بمعزل عن الناس)[٥] وزاد نفوذ المماليك البرجية تدريجيًا إلي أن قويت شوكتهم في عهد سلطنة الناصر محمد ابن قلاوون

وهناك خطوات لا تستطيع أن توقفها أو تتحكم فيها طالما بدأت الخطوة الأولي بنفسك فلن تعرف ما الذي سيحدث بعد وفاتك وإلي أين ستتجه خطوات من سيأتي بعدك

وبالفعل لقد كانت هذه هي الخطوة الكبري في تأسيس دولة المماليك البرجية والإطاحة بدولة المماليك البحرية عندما ظهر علي مسرح الأحداث الأمير برقوق

الظاهر برقوق يؤسس دولة الجراكسة

في عهد أحد أحفاد الناصر محمد استطاع أحد المماليك البرجية التدرج في المناصب والوصول إلي منصب أتابك العسكر[٦] سنة ٧٨٠ هـ " ١٣٧٨ م "[٧] وهذا المملوك هو الأمير برقوق الذي انتهز اضطراب الأحوال في البلاد وضعف دولة المماليك البحرية ووجود سلطان صغير السن من أحفاد الناصر محمد بن قلاوون ووسط كل هذا تمكن برقوق من الوصول للسلطة حيث عقد اجتماعًا مهمًا وكبيرًا بالقلعة حضره الخليفة العباسي والقضاة (قرروا فيه : " إن أحوال المملكة قد فسدت وتزايد فساد العربان في البلاد من الشرقية والغربية والصعيد ، وقد خامرت النواب وخرجوا عن الطاعة والأحوال غير صالحة وإن الوقت محتاج لإقامة سلطان كبير – – – يردع العربان ويمهد البلاد ويسكن الاضطراب ويقمع أهل الفساد – –)[٨]

ودائمًا تكون الحاجة في مصر إلي حاكم قوي ، ولا أدري هل مصر هي التي في حاجة إليه أم أنه هو الذي في حاجة إليها ، وسبحان الله ، فما أكثر ما يتكرر هذا المشهد في تاريخ مصر منذ الفراعنة

وعلي أي حال تم إعلان الأمير برقوق سلطانًا علي البلاد وأصبح لقبه السلطان الملك الظاهر برقوق وبذلك قامت دولة المماليك الجراكسة ، وبالتأكيد قام الجراكسة بشراء المزيد من الجراكسة ، ويبدو أن سلاطين المماليك البرجية لم يكتفوا فقط بشراء مماليك سعرهم منخفض بل إنهم قرروا شراء مماليك كبار في السن

---

[٥] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٤
[٦] وزير الدفاع حاليًا أو القائد العام للجيش
[٧] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٥
[٨] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٥

فكان المملوك يصل مصر شابًا كبيرًا[٩] وليس طفلًا صغيرًا وتم تسميتهم بالمماليك الجلبان أو الأجلاب الذين جلبوا إلي البلاد كبارًا

وقد أدي هذا بالطبع إلي اختفاء عملية إعداد المملوك التي كانت تحدث أيام المماليك البحرية مما أثر علي سلوكيات المماليك بشكل واضح فتغير تاريخ مصر بل وتاريخ الدولة المملوكية بالكامل تقريبًا

(وصار تجار الرقيق يجلبون إلي مصر المماليك الكبار ، في الوقت الذي بخل عليهم السلاطين بالمال والتربية الصالحة ، ولم يدفعوا بهم إلي فقيه أو مؤدب ، وتهاونوا في تربيتهم ، فضعفت روحهم العسكرية وكثرت ثوراتهم وصاروا مصدر قلق واضطراب وفوضي – – وخير تعبير عن حالة المماليك الجراكسة وما طرأ عليهم من فساد وتدهور ما وصفهم به المقريزي فقد قال في نقد لاذع " وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدرًا وأشحهم نفسًا وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم إعراضًا عن الدين – –)١٠

وكما قال أمير الشعراء أحمد شوقي :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت – – – فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وهكذا كان بدء هبوط منحني دولة المماليك التي بدأت برجال أقوياء وسلاطين عظماء جاهدوا تحت راية الإسلام وكانت لهم صولات وجولات في ميادين القتال وقهروا الصليبيين والتتار وكان تقديرهم للدين الإسلامي واعتزازهم به واعتمادهم عليه واحترامهم لعلماءه سببًا رئيسيًا لانتصاراتهم ومجدهم وهذا الاهتمام بالدين كان ناتجًا عن نشأتهم نشأة صالحة دينية منذ نعومة أظافرهم أما ما وصل إليه الحال في نهاية عهد المماليك الجراكسة فسوف نتناوله إن شاء الله ، وسنكتب عن الخيانة والفساد وانتشار الفوضى واللامبالاة التي أدت إلي انهيار دولتهم علي يد العثمانيين وتحولوا من سلاطين إلي بكوات

ولكن قبل أن نسترسل في الحديث عن دولة المماليك البرجية سنتكلم في عجالة عن الملك الظاهر برقوق مؤسس دولة المماليك البرجية (الجراكسة)

حيث تولي السلطان المملوكي الظاهر سيف الدين برقوق حكم مصر سنة ١٣٨٢م ، وكان محبًا للفروسية ميالًا للعب بالرمح ، ولقد ألغي السلطان برقوق الكثير من الضرائب فنشطت الحركة التجارية وهبطت أسعار السلع المستوردة ، الأمر الذي شجع الكثير من التجار الأجانب وخاصة الشرقيين منهم علي الإتجار مع مصر ، وقد اتسع ملك مصر في عهده ، فقد خُطِب باسمه في أماكن لم يخطب لأحد قبله فيها من سلاطين المماليك ، فخُطِب باسمه في مدينة تبريز وفي الموصل وفي ماردين وسنجار بجانب مصر وبرقة والشام

---

[٩] يعرف وطنه وله تاريخ وذكريات فيه وعائلة وما إلي ذلك

[١٠] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٦

والحجاز واليمن وضربت السكة باسمه في هذه الأماكن، وكل هذه البلاد كانت تحت سيطرته ، وبالطبع لم تكن هناك حدود بينها فهي دولة واحدة كبيرة يمكن لأي شخص فيها الانتقال من مكان إلي آخر بدون الحاجة إلي أي إجراءات خاصة[١١] ، ولقد كانت دولة واحدة كبيرة لفترة كبيرة من الزمن وليس في عصر المماليك فقط بل تم السيطرة علي ما يسمي حاليًا بالشرق الأوسط من معظم حكام مصر البارزين منذ تحتمس الثالث أيام الفراعنة مرورًا بكبار القادة من أمثال ملوك الفرس والاسكندر وبطليموس الأول والرومان وبعد ذلك الدول الإسلامية المتعاقبة كالأموية والعباسية ثم الطولونية والإخشيدية والأيوبية ثم المملوكية كل هذه الدول لم تعرف الحدود المعروفة حاليًا بينها

والجدير بالذكر أن المرة الأولي في التاريخ التي يتم رسم حدود بين هذه الدول ، كانت بعد الاحتلال البريطاني والفرنسي وتوقيع اتفاقية سايكس بيكو بينهما لتقسيم مناطق نفوذ كل دولة منهما بعد سقوط آخر دولة إسلامية مرهوبة الجانب في المنطقة ، وهذا يعني أنه عند حدوث أي خلاف علي الحدود بين هذه الدول حاليًا يجب أن نعود إلي اتفاقية سايكس بيكو لحسم الأمر ، فقد ترك المحتلون المنطقة العربية والأفريقية مع وضع بذور الاختلاف بين هذه الدول علي الحدود لأنها لم تكن حدود طبيعية كما في أوروبا ولكنها خطوط مستقيمة مرسومة علي الخريطة باليد

والمقصود بالحدود الطبيعية هي أن يفصل بين الدول سلسلة جبال مثلًا أو بحر أو نهر أو أي تضاريس طبيعية توضح حدود الدولة منذ أن سكنها القدماء وليس خط مستقيم تم تحديده علي الخريطة في اتفاقية ونعود إلي الظاهر برقوق الذي مات دون أن يعرف أن دولته ستتمزق وتتحول إلي أشلاء

عندما توفي الظاهر برقوق دُفِن بالصحراء مع مجموعة من العلماء والصالحين ، وكان قد أوصي أن يبني لهم مدفن وأن يلحق به مسجد وخانقاه ، ولقد نفذ ابنه الناصر فرج الوصية ، وتعتبر مدرسة (مسجد) وخانقاه السلطان برقوق أولي المنشآت المعمارية في دولة المماليك الجراكسة بمصر وهي ملاصقة لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون وتطل علي شارع المعز لدين الله في (بين القصرين)

أما عن تخطيط المدرسة فهي كبقية المدارس المملوكية ، فهي تتكون من صحن مكشوف بوسطه فسقية عليها قبة مقامة علي ثمانية أعمدة وتحيط بها أربعة إيوانات ، ولقد استخدم الرخام لأول مرة في زخرفة الواجهة الرئيسية وزخرفة المئذنة أما مدفن السلطان برقوق فيكفي هذا الأثر فخرًا أن صورته استعملت رمزًا لأحد العملات الورقية في مصر ولقد شيد ذلك المدفن السلطان الناصر فرج بن برقوق لأبيه ، واستغرق

---

[١١] مثل التأشيرات حاليًا

بناؤه اثنتي عشرة سنة ، واستغل هذا المكان كمدفن وخانقاه للتعبد ومدرسة لتدريس المذاهب الأربعة ومسجدًا جامعًا

وفي عهد الظاهر برقوق ارتفع نجم القائد تيمورلنك ملك التتار ودارت عدة صراعات بسبب ذلك في المنطقة ولقد عاصر أيضًا جلوس السلطان الظاهر برقوق علي عرش مصر مقدم الفيلسوف المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون إلي مصر حيث وصل إلي الإسكندرية من البلاد المغربية واندمج منذ وصوله إلي مصر في نسيج حياتها يدرس في الجامع الأزهر ويتولي رئاسة القضاء الحنفي ، وقد زار ابن خلدون العالم الشهير مصر سنة ٧٨٤ هـ (نوفمبر ١٣٨٢م) في عصر دولة المماليك الجراكسة (وكانت هذه أول مرة يري فيها القاهرة ، فقال :

فانتقلت إلي القاهرة أول ذي القعدة فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك تلوح القصور والأواوين في جوه ، وتزهر الخوانق والمدارس بآفاقه وتضيء البدور والكواكب بين علمائه ، – ونحن لهذا العهد نري أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت)١٢

فتح قبرص ومحاولات فتح رودس وأحداث أخري في عصر المماليك البرجية

لم ينس المماليك ما فعله ملك قبرص عندما نهب مدينة الإسكندرية وهرب بأسطوله كاللصوص وظل دافع الانتقام موجود ولكن لم تكن هناك فرصة مناسبة علي ما يبدو للرد علي هذه الحملة ، ولكن تم الرد بعد ستين سنة من حدوثها وفي عهد السلطان الأشرف برسباي الذي أرسل ثلاث حملات بحرية إلي جزيرة قبرص (الأولي سنة ٨٢٧ هـ "١٤٢٤ م " والثانية سنة ٨٢٨ هـ " ١٤٢٥ م " والثالثة سنة ٨٢٩ هـ "١٤٢٦ م ")١٣ وفي الحملة الثالثة استطاع المماليك فتح قبرص والسيطرة عليها بالكامل بل وتم أسر ملك قبرص الذي كان في ذلك الوقت الملك جانوس الذي تم إطلاق سراحه في مقابل أن تصبح الجزيرة تابعة لمصر وتدفع الجزية (وهكذا انتقمت مصر لنفسها من جزيرة قبرص ونجحت في القضاء علي نشاطها في مياه البحر المتوسط ، وظلت قبرص منذ ذلك الوقت تابعة للقاهرة ، وتدفع جزية سنوية حتي نهاية حكم المماليك علي يد العثمانيين سنة ١٥١٧ م)١٤

---

[١٢] نقلا عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – حمدي عثمان ، وكتاب (مصر في العصور الوسطي - الأوضاع السياسية والحضارية) (د محمود الحويري)

[١٣] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٧

[١٤] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٩

كما كانت هناك أيضًا محاولات أخري للسيطرة علي جزيرة رودس في عصر المماليك البرجية ، فبعد أن سقطت جزيرة قبرص تحول بقايا الصليبيين إلي جزيرة رودس ليتخذوها قاعدة لهم محصنة للهجوم علي بلاد المسلمين وسفنهم والقيام بأعمال القرصنة البحرية (ومما يؤكد ذلك أنه في عهد السلطان جقمق " ٨٤٢-٨٥٧هـ / ١٤٣٨-١٤٥٣م " دخلت فرع رشيد في ربيع الأول سنة ٨٤٣ هـ / ١٤٣٩ م أربع سفن للصليبيين حتي قاربت مدينة رشيد وأخذت أبقارًا وغيرها ثم عادت أدراجها - - وكان من المستحيل علي دولة المماليك الجراكسة أن تقف مكتوفة الأيدي أمام القراصنة الذين اتخذوا من سواحل جزيرة رودس أوكارًا يخرجون منها للإغارة علي شواطئ مصر - - - ولذلك أراد السلطان جقمق إخضاع جزيرة رودس ليبسط سيادته علي مياه شرق البحر المتوسط -)١٥ وأرسل جقمق ثلاث حملات لغزو رودس وكانت المقاومة شرسة وعنيدة ولكنها انتهت بتوقيع اتفاقية صلح ليتوقف القتال مقابل توقف أعمال القرصنة وهذا باختصار شديد جدًا ما حدث

وتم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح أيضًا في العصر المملوكي ، فقد (كانت النزعة الاستعمارية هي القاعدة العريضة التي قامت عليها الكشوف الجغرافية في أواخر العصور الوسطي وفي هذا الدور من أدوار الحركة الصليبية ظهرت البرتغال بجهودها الكشفية ذات الطابع الصليبي وشجعها البابوات ، علي أساس تطويق المسلمين من الأمام والخلف وتحطيم سيطرتهم علي تجارة الهند التي تمثل المنبع الرئيس لثروتهم ورخائهم ، وفي ٢٠ مايو سنة ١٤٩٨ م " ٩٠٤ هـ " بعد رحلة استغرقت أكثر من عشرة شهور تمكن فاسكو دي جاما من الطواف حول أفريقيا من طريق رأس الرجاء الصالح)١٦ وبوصول البرتغاليون إلي الهند تم ضرب اقتصاد الدولة المملوكية في مقتل ، فكانت ضربة قاسية للاقتصاد المملوكي الذي يعتمد علي تجارة الترانزيت ، (وعبثًا حاولت دولة المماليك الجراكسة إيقاف البرتغاليين عن التعرض بسوء للتجار المسلمين في الهند وتهديد سفنهم التجارية ، فدخلت في حرب معهم كان نصيبها فيها الهزيمة الساحقة وتحطيم أسطولها في معركة ديو البحرية في ٣ فبراير سنة ١٥٠٩ م "٩١٥هـ" فلم تقم للتجارة المملوكية في الهند بعد ذلك قائمة وتدهور مركزها الاقتصادي)١٧ ولأول مرة تقريبًا يذوق المماليك طعم الهزيمة الساحقة التي لم تحدث لهم منذ نشأة دولتهم وحتي هذه المعركة

---

[١٥] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٧٠
[١٦] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٧١
[١٧] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٧٢

وقد تحدثنا عن بعض الأحداث المهمة في عصر الجراكسة وتكلمنا في عجالة عن السلاطين برقوق وبرسباي وجقمق ويمكننا أن نتحدث عن الأشرف إينال والأشرف قايتباي والغوري وطومان باي فهي أسماء معروفة بالفعل ولنبدأ بالسلطان الأشرف إينال

الأشرف إينال يعاصر السلطان العثماني محمد الفاتح

هو السلطان الأشرف أبو النصر سيف الدين إينال العلائي الظاهري وهو السلطان الثاني عشر من دولة المماليك البرجية الشراكسة في مصر بويع بالسلطنة في يوم الاثنين ٨ ربيع أول عام ٨٥٧ هـ. الموافق ١٩ مارس ١٤٥٣م وكانت فترة حكمة لمصر والدولة المملوكية حوالي ٨ سنوات

ويقال أن إينال كلمة تركية من مقطعين هما: «أى» ومعناها القمر، و«نال» ومعناها شعاع أى أن اسمه يعنى «شعاع القمر« وكان قد تولّى عدة مناصب قبل السلطنة منها رأس نوبة ثاني ونائب غزة ونائب الرها في زمن السلطان برسباي عام ٨٣٦ هـ ثم حضر إلى القاهرة وأصبح مقدم ألف ثم أصبح نائب صفد عام ٨٤٠ هـ ثم عينه السلطان جقمق أتابكا عام ٨٤٩ هـ. وكان السلطان إينال ملكا هينا لينا قليل الأذى لم يسفك دما قط بغير وجه شرعي، ينقاد للشريعة الغراء ويحب العلماء ويُعتبر من خيار ملوك الشراكسة. وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت تربطها علاقات طيبة مع دولة المماليك وظلت هذه الدولة القوية تحاول فتح القسطنطينية حتي تم لها ذلك في عهد السلطان العثماني محمد الثاني ، الذي أطلقوا عليه بعد ذلك اسم محمد الفاتح

وكان ذلك في عهد السلطان المملوكي الأشرف إينال الذي وصلته رسالة من السلطان العثماني محمد الفاتح يخبره فيها بفتح القسطنطينية وهذا بعض ما جاء في رسالة محمد الفاتح إلي الأشرف إينال :

(– – إن من أحسن سنن أسلافنا رحمهم الله تعالي أنهم مجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ونحن علي تلك السنة قائمون وعلي تلك الأمنية دائمون ممتثلين بقوله تعالي {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ } (٢٩) سورة التوبة ، ومستمسكين بقوله عليه الصلاة والسلام " من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله علي النار " فهممنا في هذا العام غممه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل الله ذي الجلال والإكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام إلي أداء فرض الغزو في الإسلام مؤتمرين بأمره تعالي {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ } (١٢٣) سورة التوبة ، وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجورًا وكفرًا التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخرًا – – فمتي طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادى الأولي هجمنا مثل النجوم رجومًا لجنود

الشياطين سخرها الحكم الصديقي ببركة العدل الفاروقى بالضرب الحيدرى لآل عثمان من الله بالفتح قبل أن تظهر الشمس من مشرقها {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ } (٤٥)، (٤٦) سورة القمر)١٨

وبالطبع فرح المسلمون في مصر وفي جميع أنحاء الأمة الإسلامية فرحًا عظيمًا بهذا الفتح ، كما سعد الخليفة العباسي بذلك سعادة بالغة فكم ناصبت الدولة البيزنطية العداء للأمة الإسلامية وأذاقتها من شرورها ، وقد قام السلطان إينال بالرد علي رسالة السلطان محمد الفاتح برسالة يهنئه فيها بالفتح العظيم وجاء فيها بعض أبيات من الشعر الذي نظمه الشعراء في مصر بهذه المناسبة كان منها :

كذا فليكن في الله جل العزايم - - - وإلا فلا تجفوا الجفون الصوارم

كتائبك البحر الخضم جيادها - - - إذا ما تهدت موجه المتـلاطم

يا ناصر الإسلام يا من بغزوه - - - علي الكفر أيام الزمان المواسم١٩

وكان تاريخ فتح القسطنطينية ٢٠ جمادى الأول سنة ٨٥٧ هجريًا (٢٩ مايو ١٤٥٣ ميلاديًا) ومنذ هذا التاريخ لم يعد هناك وجود لما يسمي بالدولة البيزنطية٢٠ ، وسبحان الله فقد كانت القسطنطينية عاصمة أباطرة الروم الشهيرة والتي ظلت لفترة طويلة معقل من معاقل أعداء الإسلام منذ الإمبراطور هرقل الشهير حيث كانت الدولة البيزنطية الكبرى المسيطرة علي بقعة ضخمة من العالم ولا تنافسها إلا دولة الفرس ، وقد بشر رسول الله صلي الله عليه وسلم بفتحه القسطنطينية وانتظر المسلمون هذا الحدث ومر عليهم خلفاء كبار وسلاطين أقوياء دون أن يتم فتح القسطنطينية ولكنهم كانوا علي ثقة كاملة من أن بشارة رسول الله صلي الله عليه وسلم سوف تتحقق في يوم من الأيام

وقد تحققت بالفعل بفضل الله تعالي علي يد الدولة العثمانية التي كانت في ذلك الوقت ترفع راية الجهاد في سبيل الله ، وأخذت هذه الدولة تنمو وتزدهر وتتوسع وكانت تربطها علاقات طيبة وحسنة مع دولة المماليك والخليفة العباسي في مصر وظلت هذه الدولة القوية تحاول فتح القسطنطينية حتي تم لها ذلك ، ويعتبر هذا الحدث من أهم الأحداث في عصر الأشرف إينال ويمكننا الانتقال للحديث عن السلطان الأشرف قايتباي

---

[١٨] الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد محمد الصلابي) صفحة ١٤٩ ، ١٥٠

[١٩] الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد محمد الصلابي)صفحة ١٥١

[٢٠] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٧٤

الأشرف قايتباي وبدء التوتر مع العثمانيين

تولي السلطان الأشرف قايتباي حكم مصر سنة ١٤٦٨ م وكان من ألمع سلاطين المماليك الذين حكموا مصر ، وفي عهده وصل إلي القاهرة الأمير (جم) العثماني أخو السلطان العثماني بايزيد ، لخلاف وقع بين الأخوين فرحب به قايتباي وأحاطه بعناية كبيرة ، فكان هذا الموقف سببًا لإفساد العلاقات بين مصر المملوكية والدولة العثمانية ، فلم يغفر السلطان بايزيد للسلطان قايتباي إيواء الأمير جم ، ووقعت أول معركة بين الجانبين سنة ١٤٨٤ م وقد انتصر فيها المماليك ، وقد وقعت معركة أخري سنة ١٤٨٦ م حيث التقي جيش مملوكي ضخم تحت قيادة الأمير يزبك أتابك العسكر المصري مع جيش عثماني في أقصي الشمال فهزم الجيش العثماني هزيمة ساحقة ، حتي قيل إن عدة من قُتِل من العثمانيين يربو علي أربعين ألفًا وقبض علي قائد الجيش العثماني أحمد هرسك واستولي علي الأعلام العثمانية ، واهتزت القاهرة لهذا النصر الكبير وأقيمت الزينات وسارت المواكب التي استعرضت فيها الأعلام العثمانية وقد وقعت مواجهة أخري بين الجانبين سنة ١٤٨٧ م اشترك فيها الأسطول العثماني وكان النصر أيضًا حليف الجيش المملوكي ، ومن جديد ارتجت القاهرة لهذا النصر الجديد وأقيمت فيها الاحتفالات

ويبدو أن الجيش المملوكي في عصر قايتباي كان من أقوي الجيوش في المنطقة إن لم يكن أقواها علي الإطلاق ، فقد كان المماليك لا يزالون محتفظون بقوتهم وكفائتهم القتالية العالية، واستقر الرأي بعد مفاوضات متواصلة بين السلطان قايتباي المملوكي والسلطان بايزيد العثماني علي عقد صلح بين الملكين علي أساس أن يرسل بايزيد مفاتيح القلاع التي استولي عليها إلي مصر إشارة إلي ردها إلي ملكية مصر ،علي أن يطلق قايتباي من عنده من الأسري العثمانيين ، وتبادل السلطانان الهدايا والمجاملات الودية وهكذا فتحت صفحة جديدة من الود بين الدولتين سنة ١٤٩٢م والجدير بالذكر أن العلاقات ساءت بين الدولتين مرة أخري وبلغت ذروتها في عهد كل من السلطان المملوكي الأشرف قنصوة الغوري والسلطان العثماني سليم الأول

وتعتبر قلعة قايتباي في الإسكندرية من أهم المنشآت المعمارية للملك الأشرف قايتباي ، وتم بناء هذه القلعة علي أساس منارة الإسكندرية القديمة ، أي أن مكان هذه القلعة كانت منارة الاسكندرية المشهورة تاريخيًا وكانت تعد من عجائب الدنيا ،

وقد أنشأ قايتباي هذه القلعة المعروفة باسمه سنة ١٤٧٩ م واشتملت علي مسجد بقيت منارته إلي ما بعد الاحتلال الفرنسي لمصر وتأثر بضرب الإسكندرية سنة ١٨٨٢ أسوأ الأثر ، وكانت أحداث ضرب

الإسكندرية قد تسببت في تخريب هذه القلعة وهدم أبراجها وقسم كبير من واجهاتها وبقيت متخربة إلي أن عنيت إدارة حفظ الآثار العربية بإصلاحها ، وقد أصلحت أبراجها وما يعلوها من أبنية بعد إعادتها لحالتها الأصلية وهي تبدو لزائر الإسكندرية من كل جهة والجدير بالذكر أن السلطان قايتباي هو السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي الجركسي ، وولد في سنة ١٤٢٣ م ، وبويع بالسلطنة سنة ١٤٦٨ م ، وقد ظل ملكًا لمصر نحو ٢٩ سنة

وقد أمر بتشييد منشآت أخري ، فقد أقام كثيرًا من المنشآت المعمارية من مساجد ومدارس ووكالات ومنازل وأسبلة وقناطر للمياه ، كما عني بالعمارة الحربية وبالحصون فأنشأ قلعة الإسكندرية وأخري برشيد ، وقد توفي في سنة ١٤٩٦ م وينسب إليه ما يزيد عن سبعين أثرًا إسلاميًا ما بين إنشاء وتجديد ، وتعتبر مجموعة قايتباي بالقرافة الشرقية من أبدع وأجمل المجموعات المعمارية في مصر الإسلامية ، وترجع أهميتها إلي جمال تنسيق المجموعة مع بعضها ، وهي تتكون من مدرسة ومسجد وسبيل وكتاب وضريح ومئذنة ، وقد لعبت دقة الصناعة وكذا جمال النسب دورًا هامًا في إبراز جمال هذا الأثر المعماري القيم ، ومن الواضح أن قايتباي كان من السلاطين البارزين في دولة المماليك البرجية

وقد قام المؤرخ ابن اياس الحنفي بوصف عودة السلطان الأشرف قايتباي من رحلة الحج[٢١] كما ورد بكتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور فكتب ما يلي : وفيه قدم مبشر الحاج وهو شخص من الخاصكية يقال له اسنباي وقد استمر اسمه بالمبشر بعد ذلك فأخبر بسلامة السلطان وأنه دخل إلي مكة في موكب حافل وكان له يوم مشهود ، ولقاه أمير مكة من مسيرة يومين ، وأنه تصدق علي فقراء بمكة بخمسة آلاف دينار ، وتواضع تواضعًا وخضوعًا إلي الغاية ، وكان بطول الطريق لا يتكلم في شئ يتعلق بالأحكام بين الناس وفعل في الطرقات أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف فحصل لاسنباي المبشر جملة خِلَع ، ومالا له صورة ، من الأمراء وأعيان الناس ، ومن خوند زوجة السلطان وغير ذلك من أرباب الدولة ، وفيه جهز الأتابكي أزبك ويشبك الدوادار وجماعة من الأمراء إقامات لملاقاة السلطان من العقبة ، وخرج الأمير أزبك اليوسفي أحد الأمراء المقدمين صحبة ذلك ، وخرج معه جماعة كثيرة من أرباب الدولة لملاقاة السلطان من العقبة ، واهتم الأمير يشبك الدوادار ببياض أماكن بالقلعة ودهان أبوابها وضرب الرنوك عليها وجلا واجهة القصر الأبلق وما يليه حتي ظهر رخامه الملون وقد احتفل في إصلاح ذلك جدًا ، ويستمر وصف ابن إياس فيقول : سنة خمس وثمانين وثمانمائة (١٤٨٠م) : فيها ، في المحرم بعث السلطان نجابا إلي

[٢١] تم إدراج هذا الوصف لعودة السلطان من الحج لما يحتويه من تفاصيل تلقي الضوء علي جانب كبير من حياة المماليك في ذلك العصر

الأمراء وأخبر النجاب بأن السلطان دخل إلي المدينة الشريفة ، علي صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وزار النبي صلي الله عليه وسلم وأنعم علي الفقراء الذين بها بخمسة آلاف دينار ، وأنه رحل نحو الينبع قاصدا للعقبة ، ثم رحل عنها وهو واصل عن قريب ، ثم رسم لهم بألا يخرج لملاقاته أحد من الأمراء ، وأن السلطان ينزل بقبة الأمير يشبك التي بالمطرية فبادر الأمراء بالخروج إلي هناك ونصبوا الخيام ، ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل إلي البويب فلما تحقق الأمراء ذلك ركب الأتابكي أزبك والأمير يشبك الدوادار وبقية الأمراء من المطرية وتوجهوا إلي ملاقاة السلطان ، فلما وصلوا إلي البويب اجتمعوا بالسلطان هناك وساروا قدامه حتي وصل إلي الوطاق الذي بالمطرية ، وكان له هناك موكب حافل ، وكان دخوله في ثاني عشر المحرم قبل دخول الحاج بثمانية أيام ، فلما نزل بقبة الأمير يشبك مد له الأمير أزبك الأتابكي هناك مدة حافلة جدًا وبات السلطان هناك وبات عنده قضاة القضاة ومشايخ العلم وهنئوه بقدومه ، فلما كان يوم الاثنين رابع عشر ركب السلطان من هناك وحمل الأتابكي أزبك علي رأسه القبة والطير ، وركب قدامه الأمراء والعسكر وهم موكبون كالأعياد ، وسارت الأمراء والقضاة الأربعة قدامه ، فدخل من باب النصر ، وشق من القاهرة ، وقد زينت له زينة حافلة ، واستمر في هذا الموكب العظيم ، وطلب طلبا حافلا ولعب قدامه بالغواشي الذهب وكان له يوم مشهود إلي أن طلع إلي القلعة ، فلما طلع فرشت له خوند عدة شقق من باب القلعة إلي الحوش ، ونثرت علي رأسه خفائف الذهب والفضة وتوشحت الخدام بالبنود الذهب والحرير الأصفر ، وتخلقت بالزعفران ، فلما دخل السلطان إلي الحوش ، مد له هناك الأمير يشبك مدة حافلة أعظم من مدة الأتابكي أزبك التي مدها له بالقبة ، ثم أن السلطان خلع علي من كان معه من أرباب الوظائف ونزلوا إلي بيوتهم وانفض ذلك الموكب ، وعدت هذه الحجة من النوادر الغريبة ، ودخل عليه جملة تقادم من مال وتحف تعدل مائتي ألف دينار من أمير مكة وقضاتها ، ومن أمير الينبع وغير ذلك ، وقد نظم الشعراء في هذه الواقعة عدة قصائد ، فمن ذلك :

قدم السرور بمقدم السلطان ،،، من حجه المقبول بالرضوان

سلطاننا الملك الهمام الأشرف ،،، الراقي سماء الحسن والاحسان

فهناؤنا ببقائه ، في نعمة ،،، وسلامة فرض علي الأعيان

لما نوي حجا ولبي محرما ،،، عم الأمان مراتع الغزلان

والوحش في أبياتها والدوح في ،،، أنباتها والطير في الطيران

ثم الصلاة علي النبي المصطفي ،،، عدد الرمال بجملة الكثبان

ويستمر ابن اياس في الوصف الرائع فيقول : فلما استقر السلطان بالقلعة ، أخذ في أسباب تفرقة الهدية علي الأمراء ، فابتدأ بالأتابكي أزبك ثم بقية الأمراء كل من هو في منزلته ، ثم المباشرين وأرباب الدولة ، وكان الأمراء والمباشرون قدموا للسلطان أيضًا تقادم حافلة ، ما بين مال وخيول وقماش وغير ذلك ، وهذا الوصف لعودة السلطان من الحج يحتوي علي تفاصيل تلقي الضوء علي جانب كبير من حياة المماليك في ذلك العصر ، فكان تحرك السلطان من مكان إلي آخر يشمل العديد من الطقوس التي كانت متبعة في ذلك الوقت ، ومن ذلك ما ذكره المقريزي عن التقاليد السلطانية عند سفر السلطان

قال المقريزي رحمة الله عليه : وكان من رسوم السلطان في خروجه إلي سرياقوس وغيرها من الأسفار ألا يتكلف إظهار كل شعار السلطنة بل يكون الشعار في موكبه السائر فيه جمهور مماليكه مع المقدم عليهم واستاداره ، وأمامهم الخزائن والنجائب والهجن ، وأما هو نفسه فإنه يركب معه عدة كبيرة من الأمراء الكبار والصغار من الغرباء والخواص ، وجمله من خواص مماليكه ، ولا يركب في السير برقبة ولا بعصائب بل يتبعه جنائب خلفه ويقصد في الغالب تأخير النزول إلي الليل فاذا جاء الليل حملت قدامه فوانيس كثيرة ومشاعل فاذا قارب مخيمه تلقي بشموع موكبية في شمعدانات ، وصاحت الجاويشية بين يديه ، ونزل الناس كافة إلا حملة السلاح فإنهم وراءه والوشاقية أيضاً وراءه وتمشي الطبردارية حوله ، حتي إذا وصل القصور بسرياقوس أو الدهليز من المخيم ، نزل عن فرسه ودخل إلي الشقة وهي خيمة مستديرة متسعة ثم منها إلي شقة مختصرة ثم منها إلي قصر صغير من خشب برسم المبيت فيه ، وينصب بإزاء الشقة الحمام بقدور الرصاص والحوض ، علي هيئة الحمام المبني في المدن إلا أنه مختصر ، فإذا نام السلطان طافت به المماليك دائرة بعد دائرة ، وطاف بالجميع الحرس وتدور الزفة حول الدهاليز في كل ليلة وتدور بسرياقوس حول القصر في كل ليلة مرتين : الأولي منذ يأوي إلي النوم والثانية عند قعوده من النوم ، وكل زفة يدور بها أمير جاندار وهو من أكابر الأمراء وحوله الفوانيس والمشاعل والطبول والبياتة وينام علي باب الدهليز النقباء وأرباب النوب من الخدم ، ويصحب السلطان في السفر غالب ما تدعو الحاجة إليه حتي يكاد يكون معه مارستان (مستشفي) ، لكثرة من معه من الأطباء وأرباب الكحل والجراح والأشربة والعقاقير وما يجري مجري ذلك ، وكل من عاده طبيب ووصف له ما يناسبه ، يصرف له من الشراب خانه أو الدواء خانه المحمولين في الصحبة ، والله أعلم

ويُعد ما ذكره المقريزي طقوس عجيبة فعلاً وأعتقد أن أهم ما فيها هو ما يتعلق بالطب والأطباء

ثم يستطرد فيقول : وكان من مصطلح الملوك أن تكون تفرقة السلطان الخيول علي الأمراء في وقتين أحدهما عندما يخرج إلي مرابط خيله في الربيع عند اكتمال تربيعها وفي هذا الوقت يعطي أمراء المئين (يقود كل منهم مائة مملوك) الخيول مسرجة ملجمة بكنابيش مذهبة ويعطي أمراء الطبلخانات (الذين تتقدمهم الطبول في مواكبهم) خيلا عريًا ، والوقت الثاني يعطي الجميع خيولا مسرجة ملجمة بلا كنابيش بفضة خفيفة وليس لأمراء العشراوات حظ في ذلك إلا ما يتفقدهم به علي سبيل الإنعام ولخاصكية السلطان المقربين من أمراء المئين وأمراء الطبلخانات زيادة كثيرة من ذلك بحيث يصل إلي بعضهم المائة فرس في السنة ، وكان من شعار السلطان أن يركب إلي الميدان وفي عنق الفرس رقبة حرير أطلس أصفر بزركش ذهب فتستر من تحت أذني الفرس إلي حيث السرج ويكون قدامه اثنان راكبين علي حصانين أشهبين برقبتين نظير ما هو راكب به ، كأنهما معدان لأن يركبهما ، وغاشية السرج محمولة أمام السلطان وهي أديم مزركش مذهب يحملها الركابدارية قدامه ، وهو ماش في وسط الموكب ، ويكون قدامه فارس يشبب بشبابة (آلة موسيقية) لا يقصد بنغمها الإطراب ، بل ما يقرع بالمهابة سامعه ومن خلف السلطان الجنائب وعلي رأسه العصائب السلطانية وهي صفر مطرزة بذهب بألقابه واسمه

وهذا لا يختص بالركوب إلي الميدان فقط بل يعمل هذا الشعار أيضاً إذا ركب يوم العيد أو دخل إلي القاهرة أو إلي مدينة من مدن الشام ويزداد هذا الشعار في يوم العيدين ودخول المدينة برفع المظلة علي رأسه ويقال لها الحبر وهو أطلس أصفر مزركش من أعلاه قبة وطائر من فضة مذهبة ، يحملها يومئذ بعض أمراء المئين الأكابر وهو راكب فرسه إلي جانب السلطان ، ويكون أرباب الوظائف والسلاحدارية كلهم خلف السلطان ، ويكون حوله وأمامه الطبردارية وهم طائفة من الأكراد ذوي الإقطاعات والإمرة ويكونون مشاة

أما الأهم من ذلك كله هناك موقف تاريخي في غاية الأهمية قد حدث في عصر المماليك البرجية وهو محاولة إنقاذ الأندلس قبل سقوطها

محاولة إنقاذ الأندلس في العصر المملوكي

في الحقيقة إنه من المواقف التاريخية المؤثرة التي حدثت في ذلك العصر وهو محاولة إنقاذ الأندلس بواسطة الدولة المملوكية وقد وردت هذه المحاولة في كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان حيث كتب ما يلي :

قلما نجد في صحف مصر الإسلامية ما يثير من التأثر والشجن ، قدر ما تثيره هذه المحاولة النبيلة التي بذلتها مصر لتنقذ دولة الإسلام في الأندلس ، ولقد كانت أيضًا آخر محاولة بذلتها مصر المستقلة في

ميدان الدبلوماسية الإسلامية ، في سنة ١٤٨٩ كانت جيوش أسبانيا النصرانية – أو جيوش قشتالة وأراجون – تتقدم في قلب مملكة غرناطة آخر معقل لأسبانيا المسلمة وكانت دولة الإسلام في الأندلس قد أخذت منذ أوائل القرن السابع الهجري تنحدر بسرعة إلي هاوية الإنحلال والفناء ، – ثم حل الصراع الأخير ، واتحدت قشتالة وأراجون علي يدى فرناندو وإيسابيلا ، واعتزمت أسبانيا النصرانية أن تقوم بضربتها الحاسمة للإسلام في الأندلس ، فتقدمت الجيوش المتحدة علي مملكة غرناطة ، وكانت أحوال غرناطة يومئذ تنذر بالويل ، وكان الخلاف الداخلي قد دب إليها ومزقتها المنافسات والمعارك الأهلية ، وشطرتها إلي شطرين يتربص كل منهما بالآخر ، أحدهما غرناطة وبعض أعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل ، وكان فرناندو وإيسابيلا قد شهرا الحرب علي الإسلام قبل ذلك بأعوام ، – وكانت أنباء الأندلس قد ذاعت يومئذ في العالم الإسلامي ، واهتز لمصابها أمراء الإسلام قاطبة ، وكان أمراء الأندلس وزعماءها يتجهون إزاء الخطر الداهم بأبصارهم إلي دول الإسلام في إفريقية ومصر وتركيا لتسعي إلي غوثهم ، وكانت سفاراتهم ورسائلهم تتري منذ أعوام علي فاس والقاهرة وقسطنطينية

وهذه الرسائل كانت تطلب من أقوي الدول الإسلامية في العالم في ذلك الوقت التدخل لإنقاذ الأندلس

وكان سلطان مصر يومئذ الملك الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري ، ولم تكن أحوال مصر علي ما يرام يومئذ ، فقد كان يسودها الانحلال الداخلي ، وكانت فوق ذلك تخشي الخطر يهددها من ناحية الترك ، ولكن مصر لم تنس مهمتها التاريخية في توجيه الدبلوماسية الإسلامية كلما دعيت إلي أدائها – ووصلت سفارة الأندلس إلي مصر في أواخر سنة ٨٩٢هـ (نوفمبر سنة١٤٨٧م) ، ويصف ابن إياس هذه السفارة فيما يأتي : وفي ذي القعدة سنة ٨٩٢هـ جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس ، وعلي يده مكاتبه من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه علي قتال الفرنج ، فإنهم أشرفوا علي أخذ غرناطة وهو في المحاصرة معهم

ومهما يكن من موقف مصر وتركيا يومئذ إزاء حوادث الأندلس فإن مصر هي التي انفردت بتلبية نداء الأندلس ، والسعي إلي إنقاذها ولم تكن أحوال مصر يومئذ مما يسمح لها بإرسال جيش أو غيره من المساعدات المادية ، إلي ميدان حرب ناء كالأندلس ، ذلك أن سلطان مصر الأشرف ، أجاب علي سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلي البابا وملوك النصرانية ، ولكنه لم يعهد بها إلي سفراء مسلمين ، وإنما عهد بها سفراء من رعاياه النصاري ، واختار لأدائها راهبين من جماعة القديس فرنسيس أحدهما القس انطونيو ميلان وعهد إليهما بكتب إلي البابا وإلي ملك نابولي ، وإلي فرناندو وإيسابيلا ملكي قشتالة

وأراجون ، أي أنه استعان بالدبلوماسية بدلًا من القتال واختار لأداء المهمة رعاياه من النصاري ، فيا لها من حكمة ، وفي هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصاري ، علي ما ينزل بأبناء دينه المسلمين في مملكة غرناطة ، وعلي توالي الاعتداء عليهم ، وغزو أراضيهم وسفك دمائهم ، ونهب أملاكهم ، في حين أن رعاياه النصاري في مصر وفي بيت المقدس ، وهم ملايين ، يتمتعون بجميع الحريات والحمايات ، آمنين علي أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم ، ولهذا فهو يطلب إلي ملكي قشتالة وأراجون ، الكف عن هذا الاعتداء ، والرحيل عن أراضي المسلمين ، وعدم التعرض إليهم ، ورد ما أخذ من أراضيهم ، ويطلب إلي البابا وملك نابلي أن يتدخلا لدي ملكي قشتالة وأراجون ، لردهما عما يدبرانه من المشاريع لإيذاء المسلمين والبطش بهم

ولكن ماذا في يد سلطان مصر ليفعله إذا لم تتم الاستجابة لمطالبه ، وإلا فقد تكون رسائل لا قيمة لها ، ولأنه يدرك ذلك فقد تضمنت رسائله تهديد بالمعاملة بالمثل ، فقد أضاف أيضًا : هذا وإلا فإن سلطان مصر يضطر إزاء هذا العدوان ، أن يتبع نحو رعاياه النصاري سياسة التنكيل والقصاص ، ويبطش بكبار الأحبار في بيت المقدس ، ويمنع دخول النصاري كافة إلي الأراضي المقدسة[٢٢] ،

ولقد تم الرد علي قايتباي بأن هذه المعارك والصراعات ليس لها علاقة بالاضطهاد الديني ولكن لاستعادة الأرض فقط ، وهو ما ظهر عكسه تمامًا بعد سقوط الأندلس والتنكيل بالمسلمين ، وبالطبع لم ينفذ المماليك تهديداتهم بعد سقوط الأندلس بشأن معاملة رعاياهم من النصاري ، فهذا يتعارض مع تعاليم الإسلام السمحة مع أهل الذمة

وكان لسقوط الأندلس بالتأكيد أثره المحزن علي جميع المسلمين بلا شك ولكنهم كانوا في حالة من الصراعات فيما بينهم شغلتهم عن القيام بواجبهم لإنقاذ الأندلس ، وقد بدأت المعارك بالفعل بين أقوي دولتين في العالم الإسلامي في ذلك الوقت العثمانية والمملوكية وكانت النهاية في عصر الغوري

السلطان الأشرف قنصوة الغوري

تولي السلطان الأشرف قنصوة الغوري حكم مصر سنة ١٥٠١م وكان يحكم مصر والشام والحجاز كمن سبقوه من سلاطين المماليك وكان يلقب بملك البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين ، وكانت مصر في ذلك العهد تسيطر علي حركة التجارة العالمية إلا أنها قد تأثرت إلي حد ما باكتشاف طريق رأس الرجاء

---

[٢٢] كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان ١٨٩٦-١٩٨٦ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ١٩٩٨ – مقتطفات من صفحة ٢٠٢ وما بعدها

الصالح ، وكانت القاهرة من أرقي عواصم العالم فنًا وحضارة وعلمًا وعمارة ، وقد كتب المؤرخ الكبير ابن اياس الحنفي عن السلطان الأشرف قنصوة الغوري ما يلي :

وكان للغوري محاسن ومساوي لكن مساوئه أكثر من محاسنه ، فأما ما عُد من محاسنه فإنه كان رضي الخلق يملك نفسه عند الغضب وليس له بادرة بحدة عند قوة خلقه ، ومنها أنه كان له الاعتقاد الزائد في الصالحين والفقراء ومنها أنه كان يعرف مقادير الناس علي قدر طبقاتهم ومنها أنه كان ماسك اللسان عن السب للناس في شدة غضبه ، وكان السلطان الغوري يعقد مجلسه عادةً في الحوش السلطاني حيث تتصاعد رائحة البخور وتتجول الغزلان بحرية ، ويتهيأ الجو الذي يحبه السلطان ، فقد كان الغوري علي حد تعبير ابن اياس : مولعًا بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور ، وكان ترفًا في مأكله ومشربه وملبسه ، ويحب رؤية الأزهار والفواكه ، وكان مولعًا بغرس الأشجار وحب الرياضات ، وسماع الأطيار المغردة ، ونشق الأزاهر العطرة والبخور ، وكان يستعمل الأشياء المفرحة

ويقول ابن اياس عن مساوئه ما يلي :

أما ما عُد من مساوئه فإنها كثيرة لا تحصي منها أنه أحدث في أيام دولته من أنواع المظالم ما لا حدثت في سائر الدول من قبله ، ومنها أن معاملته في الذهب والفضة والفلوس الجدد أنحس المعاملات جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل صرفها ولا يجوز في ملة من الملل وقد ذكر ابن إياس الحنفي أوصافاً كثيرة حول موضوع جمع الأموال

ولو قارن ابن اياس رحمه الله ما جمعه الغوري رحمه الله من أموال مع ما شيده من عمائر لوجد سبب وجيه لجمعه للمال وإن كانت أهمية هذه المنشآت أهمية نسبية تختلف طبقاً لاجتهاد كل شخص في تحديد أولويات الإنفاق

ويقول ابن اياس عن منشآت الغوري : وأما ما أنشأ من العمائر التي بالقاهرة فمن ذلك الجامع والمدرسة اللتان أنشأهما في الشرابشيين والوكالة والحواصل والربوع التي أنشأها خلف المدرسة عند المصبغة والمئذنة التي أنشأها في الجامع الأزهر وهي برأسين ، وأنشأ هناك الربع والحوانيت التي بالسوق خلف الجامع ، وأنشأ الربوع التي بخان الخليلي ، وجدد عمارة خان الخليلي وأنشأ به الحواصل والدكاكين ، وأنشأ الميدان الذي تحت القلعة ونقل إليه الأشجار من البلاد الشامية ، وأجري إليه ماء النيل من سواقي نقالة ، وأنشأ به المناظر والبحرة وأنشأ جامعا خلف الميدان عند حوش العرب بخطبة ومأذنة ، وجدد عمارة قاعات القلعة منها قاعة البيسرية وقاعة العواميد وقاعة البحرة وأنشأ المقعد القبطي الذي بالحوش ، وجدد عمارة

سبيل المؤمني وجعل سقفه عقود بالحجر ، وأنشأ الربع والدكاكين التي بسويقة عبد المنعم ، وأنشأ الربع والوكالة التي في الجسر الأعظم ، وجدد عمارة ميدان المهارة الذي بالقرب من قناطر السباع وبناه بالفص الحجر المشهر بعدما كان مبنيًا بالطوب اللبن ، وجدد عمارة المقياس وأنشأ به القصر علي تلك البسطة التي كانت بها ، وأنشأ بها المقعد المطل علي البحر ، وجدد عمارة قاعة المقياس ، والجامع الذي هناك ، وجدد عمارة قنطرة بني وائل ، والقنطرة الجديدة ، وقنطرة الحاجب ، وأنشأ بثغر رشيد سورا وأبراجا لحفظ الثغر وجدد عمارة أبراج الإسكندرية ، وأصلح طريق العقبة وأنشأ هناك خانا بأبراج علي بابه وجعل فيه الحواصل مثل الخان الذي في العقبة ، وحفر هناك الآبار في عدة مواضع من مناهل الحجاج ، وأنشأ بمكة المشرفة مدرسة ورباطا للمجاورين والمنقطعين هناك وأجري عين بازان بعد ما كانت قد انقطعت من سنين ، وأنشأ بجدة سورا علي ساحل البحر الملح وفيه عدة أبراج بسبب حفظ بندر جدة من الفرنج ، جاء هذا السور من أحسن المباني هناك ، وأنشأ علي شاطئ البحر الملح بالينبع الصغير سورا وأبراجا منيعة وله غير ذلك من الآثار الحسنة عدة مبان بها نفع للمسلمين ، ويبدو أنه كان يعشق البناء

ويستمر ابن اياس في وصفه فيقول : وفي الجملة إن السلطان الغوري كان خيار ملوك المماليك الجراكسة علي عوج فيه ولم يجئ من بعده أحد من الملوك يشابهه في أفعاله ولا علو همته ولا عزمه في الأمور وكان كفئا تاما للسلطنة ، مبجلا في المواكب تملأ منه العيون[٢٣]

ولقد حدث في عهده صراع مرير بين الدولة المملوكية والبرتغاليين لتأمين التجارة في البحر الأحمر وقد (بدأ هذا الصراع منذ وصول البرتغاليين إلي البحار الشرقية حيث عمل كل طرف علي الاستيلاء وأسر سفن تجار الطرف الآخر بل عمل كل فريق علي العبث وإتلاف وافساد ثروات الفريق الآخر ، وعادت هذه الأعمال العدائية من جانب الطرفين بالخسارة الشديدة علي موانئ البحر الأحمر وبخاصة موانئ عدن ومخا وجدة كما تذكر المصادر المعاصرة وكثرت الاشاعات بفساد الافرنج وتعبثهم علي التجار وقد جابوا حول بندر جدة وقد قامت سياسة البرتغاليين في حقيقة الأمر منذ تلك الفترة علي أساس القضاء علي كل نفوذ تجاري للتجار العرب في –البحار– الشرقية ، ومن هنا كانت مطاردتهم للسفن العربية وإغراقها والعمل علي طرد العرب من المراكز التجارية الهندية والإفريقية منذ وصول فاسكو داجاما إلي هذه البحار حيث قام أثناء رحلته الثانية سنة ١٥٠٢ بإرسال حملة مكونة من خمس سفن حربية للإقامة الدائمة عند مدخل البحر

[٢٣] نقلا عن كتاب (المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور) تأليف محمد بن أحمد بن اياس الحنفي – مكتبة الأسرة ١٩٩٦ صفحة ٥٦، ٥٧

الأحمر والعمل علي مهاجمة السفن العربية ومنعها من مزاولة النشاط التجاري في مياه المحيط الهندي إلا بتصريح من البرتغاليين وفعلًا تمكن قائد هذه الحملة البرتغالية من القيام ببعض الأعمال العدائية ضد السفن التجارية العربية كما تمكن من أسر بعض البحارة العرب

أي أنه لم يكتف باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح بل قام بنشر الرعب بين التجار في البحر الأحمر وقد ازدادت حدة الحصار البرتغالي شدة حينما وصل إلي المياه الشرقية البوكيرك سنة ١٥٠٦ الذي شدد من فرض الحصار البحري المفروض علي البحار العربية ومداخلها مما أضر ضررًا فادحًا باقتصاد كل من مصر واليمن والبندقية التي كانت تسعي جادة في تلك الآونة علي مقاومة الخطر البرتغالي عن طريق حث السلطان الغوري علي النهوض لمقاومة هذا العدو المشترك ، ورغم سوء الظروف الداخلية التي كانت تحيط بالسلطان الغوري فإن خطته قائمة آنذاك علي تقوية نفوذه في أقاليم البحر الأحمر وتحصين سواحله إدراكًا منه لأهمية هذا البحر الإقتصادية والاستراتيجية بالنسبة لأملاكه في مصر والحجاز ولذا فإنه أرسل في ٦ جمادي الآخرة سنة ٩١١هـ – ٤نوفمبر سنة ١٥٠٥م حملة بحرية تحت قيادة حسين الكردي من ميناء السويس ووجهتها الهند علي أن تعمل في نفس الوقت علي تحصين ميناء جدة استعدادًا لمواجهة أي خطر برتغالي في المستقبل لمهاجمة الأماكن المقدسة ، ولذا فإن الحملة زودت بالفنيين اللازمين للقيام بهذه التحصينات ، وقد أقام هؤلاء الفنيون فعلًا بعض الاستحكامات في هذا الميناء ثم اتجهت الحملة إلي موانئ اليمن الواقعة علي البحر الأحمر مثل قمر بجيزان وجزيرة كمران ثم اتجهت إلي مخا فعدن حيث ذكر الأمير حسين الكردي قائد الحملة لحاكم عدن الطاهري أن الحملة تستهدف الذهاب إلي الهند لمحاربة البرتغاليين فأمده حاكم عدن بما يشاء من طعام ومؤن ومع أن الحملة تمكنت حينما وصلت إلي "ديو" من التحالف مع بعض الإمارات الهندية وإحراز انتصارات جزئية علي القوي البرتغالية إلا أن الهزيمة حلت بها في النهاية ولم تحقق الهدف المرجو منها ومنذ تلك الآونة ازداد اقتراب الخطر البرتغالي إلي مداخل البحر الأحمر) ٢٤ ،

ولم تستمر الدولة المملوكية لاستكمال هذا الصراع ولكن حلت محلها الدولة العثمانية وتولت مسئولية العالم الإسلامي وانتهت فترة حكم السلطان الغوري بل انتهت حياته كلها في معركة مرج دابق وقد وردت كل هذه الأحداث في كتاب ممتع للمؤرخ ابن اياس الحنفي أسمه بدائع الزهور في وقائع الدهور

---

[٢٤] من كتاب (فصول من تاريخ مصر الإقتصادي والإجتماعي في العصر العثماني) د عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – من سلسلة كتب (تاريخ المصريين) رقم ٣٨ – الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة سنة ١٩٩٠ صفحة ١٢١ وما بعدها

وإليك بعض مما كتبه ابن إياس : –وفي يوم الخميس المقدم ذكره صنع السلطان – الأشرف قنصوة الغوري – وليمة حافلة بالمقياس ، واجتمع بها القضاة الأربعة ، وأعيان الناس من العلماء وغير ذلك ، ومد هناك الأسمطة الحافلة ، واجتمع هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ وكانت ليلة حافلة ، والسلطان كل سنة يصنع مثل ذلك بالمقياس قرب وفاء النيل ، وفي سنة عشر وتسعمائة صنع وليمة بالمقياس مثل هذه فزاد الله تعالي في النيل المبارك تلك الليلة خمسين أصبعًا دفعة واحدة ، فعد ذلك من النوادر ، وفي يوم الاثنين ثاني عشرينه حضر إلي الأبواب الشريفة الأمير طومان باي الدوادار ، وكان له مدة وهو مسافر في الصعيد بسبب ضم المغل ، فلما كان يوم الأحد بلغ السلطان وصوله إلي الجيزة فنزل إلي المقياس ولاقاه من هناك ، وكذلك قاصد ابن عثمان[٢٥] ، فلما طلع إلي القلعة يوم الاثنين المذكور خلع عليه السلطان خلعة حافلة ، ونزل من القلعة في موكب مشهود ، وصحبته سائر الأمراء المقدمين والمباشرين وأعيان الناس ، واستمر علي ذلك حتي دخل إلي داره ، وخلع عليه السلطان في ذلك اليوم فوقاني أخضر بطرز يلبغاوي عريض ، ومشت الأفيال وهي مزينة قدامه في ذلك الموكب وشق من الصليبة ، وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرينه توفي الأمير ماماي جوشن أحد الأمراء المقدمين الألوف ، وكان رئيسًا حشمًا جميل الهيئة قليل الأذي بين الأمراء ، ومات وهو في عشر الستين ، وقيل أصله من مماليك الظاهر خشقدم من كتابيته ، واشتراه الأشرف قايتباي من بيت المال وأعتقه فهو من جملة معاتيق الأشرف قايتباي ومن مماليكه ، فلما بلغ السلطان وفاته نزل وصلي عليه ، وكانت جنازته مشهودة رحمة الله تعالي عليه ، وفي يوم الثلاثاء المذكور كان وفاء النيل المبارك ، أوفي بعد الظهر ، وعلق الستر علي شباك القصر الذي أنشأه السلطان علي بسطة المقياس ، وقد أوفي الله الست عشرة ذراعًا وأصبعين من سبع عشرة ، ووافق ذلك ثاني عشرين مسري ، وقد أبطأ هذا النيل عن نيل السنة الماضية بسبعة أيام ، وكانت الناس بسببه في غاية الاضطراب ، وفي يوم الأربعاء رابع عشرينه ، الموافق الثالث عشرين مسري ، فتح السد وكان يومًا مشهودًا قل أن يقع مثله في الفتك والفرجة ، ورسم السلطان للأتابكي سودون العجمي بأن يتوجه ويفتح السد علي العادة ، فكان له في ذلك موكب حافل ، وخلع عليه السلطان فوقاني أخضر بطرز يلبغاوي عريض ، وحصل للناس غاية الجبر بكسر السد في ذاك اليوم ، وقد قيل في المعني :

كسر الخليج وكان ذلك نعمة سرت قلوب العالمين لبشره

ومن العجائب والغرائب أنه جبرت قلوب المسلمين لكسره

---

[٢٥] المقصود بقاصد ابن عثمان أي رسول قادم برسالة من السلطان العثماني سليم الأول

وكان هذا الاحتفال من أهم الأيام في مصر في تلك الأيام وعدد الأصابع التي تزيد وتنقص كانت أهم ما يشغل الناس ، وسبحان مغير الأحوال ، ويستطرد ابن اياس فيقول : ووافق أن النيل زاد بعد فتح السد بيومين عشر أصابع في دفعة واحدة ، ثم في اليوم الثالث من فتح السد زاد الله في النيل المبارك احدي عشرة أصبعًا في دفعة واحدة ، ثم في اليوم الخامس من فتح السد زاد سبع أصابع فزاد ست عشرة أصبعًا من ثماني عشرة ذراعًا وذلك في أواخر مسري بعد الوفاء بخمسة أيام ، فعد ذلك من النوادر ، وفي رجب كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء ، فجلس السلطان في الميدان ، وطلع إليه الخليفة والقضاة الأربعة يهنونه بالشهر

ومن المواقف والأحداث أيضًا التي ذكرها ابن اياس في تلك الفترة متابعته ومشاهدته في الميدان مع ضيوفه والمقربين منه رياضة مملوكية شهيرة ومحببة طالما مارسوها وأتقنوها وهي رياضة اللعب بالرماح علي صهوات الخيول بمرونة وسرعة فائقة ، مع دقة متناهية ورشاقة منقطعة النظير ، من الفرس والفارس ، وكأن هذه الرياضة مملوكية شكلًا وموضوعًا ، أما الطريف في مجلس السلطان هذه المرة هو وجود رسول قادم من الدولة العثمانية برسالة للسلطان الغوري من السلطان سليم الأول الذي لم يكن قد اتضح بعد هل هو عدو أم صديق ، ويسمي الناس الرسول في ذلك العصر (قاصد) فتجد ابن اياس رحمه الله يقول : جلس السلطان بالميدان وحضر عنده قاصد ابن عثمان ، ويؤكد ابن اياس أيضًا أن السلطان الغوري في هذا المجلس احتفي بهذا القاصد وأجلسه في مكان مميز يفوق مكان قائد الجيش نفسه الأتابكي سودون العجمي ، وقد حرص السلطان علي أن يتواجد هذا الرجل العثماني في الميدان ليتابع وينبهر بقدرات المقاتلين المصريين وبراعتهم في التحكم في الخيول والرماح وهو ما لا يتاح لغيرهم ، وهو ما يمثل نوع من أنواع الردع الذي يسميه العسكريون التلويح بالقوة بدون استخدامها أو قل لتوفير استخدامها من الأصل إذا أدت رسالتها في ترهيب العدو

ويصف ابن اياس بأسلوبه الممتع هذا المشهد في كتابه (الرائع بدائع الزهور في وقائع الدهور) فمما كتبه ما يلي : – – أظهروا في لعب الرمح الفنون الغريبة حتي تحير القاصد من ذلك وتعجب غاية العجب ، ثم في أواخر السَوْق نزل المعلم والباشات الأربعة والأربعون فارسًا وباسوا الأرض للسلطان ، وكان السلطان قصد سَوْق الرمّاحة قدّام القاصد عمدًا حتي يريه فروسية عسكر مصر ، وكان ذلك عين الصواب ، فاجتمع في الميدان في ذلك اليوم الجم الغفير من الخلائق ، وكان يومًا مشهودًا ، فساق الرماحة في ذلك اليوم مرتين ، ثم لعب بعد ذلك جماعة من المماليك خصمانية في الرمح ، والقاصد ينظر إليهم ويتعجب من ذلك

، فلما انقضي أمر سوق الرماحة قام السلطان ودخل إلي (قاعة) البحرة التي أنشأها في الميدان ، وأضاف القاصد هناك هو والأمراء ومد لهم أسمطة حافلة بالطعام والحلوي ، وأظهر أنواع العظمة في ذلك اليوم إلي الغاية ، ثم خلع علي قاصد ابن عثمان خلعة سنية وأهداه هداية قيمة وثمينة ، ولم ينس السلطان في ذلك اليوم أن يكافئ الأمراء والفرسان الذين قاموا بالعروض المثيرة الممتعة أمام رسول ابن عثمان وأنعم عليهم وأكرمهم

حروب السلطان سليم الأول واسماعيل الصفوي

أما عن المواجهات والمعارك والانتصارات للعثمانيين علي دولة الصفويين ، فقد كان السلطان الغوري والمماليك يتابعون هذه الأنباء بحذر وترقب ، وكانت الدولة الصفوية علي عداء شديد مع العثمانيين ولا تتوقف الحروب والمعارك بينهم ، وكان المفترض أن الدولة المملوكية ليس لها الحق أن تقف علي الحياد في هذا الصراع حيث كان يجب أن يؤيد المماليك قتال سليم الأول للصفويين لما يقومون به من جرائم ومذابح بشعة ضد أهل السنة فقد كانت الدولة الصفوية دولة شيعية متشددة ، فمن الطبيعي أن كل مسلم سني يتبع الخليفة العباسي في القاهرة لابد أن يقف مع السلطان سليم الأول ضد الدولة الصفوية

فكان من العجيب أن يقف الخليفة والقضاة الأربعة وعلماء الأزهر في مصر هذا الموقف مع السلطان الغوري ولا يحرضونه علي الدولة الصفوية وقد يكونون مجبرون علي هذا الموقف ولا حيلة لهم فيه

وقد يتسائل البعض عن دور علماء الإسلام إن لم يدافعوا عن الحق ؟!! أما السلطان سليم الأول فبعد ان استقر له الحكم شرع في التخطيط للقضاء على دولة الصفويين التي اسسها الشاه "إسماعيل الأوّل بن حيدر الصفوي" عام ١٤٩٩، واستطاعت أن تهدد بالخطر دولة العثمانيين في الشرق، حيث كان إسماعيل قد وسّع من نفوذه وجعل مركزه مدينة تبريز سنة ١٥٠١، ثم فتح العراق العربي وبلاد خراسان وديار بكر سنة ١٥٠٨، واحتل مدينة بغداد. وفي سنة ١٥١٠ كان قد ضمّ إلى أملاكه كل بلاد فارس وأذربيجان ، وبذلك امتدت مملكته من الخليج العربي إلى بحر قزوين، ومن منابع الفرات إلى ما وراء نهر جيحون.

لذلك قال السلطان سليم الاول لقادته وهو يخطط للقضاء على الصفويين (ان سجادة الصلاة تسع اثنين من الصوفية ولكن المُلك لا يسع غير واحد)..

ولم يقف الأمر علي ضم الصفوي الأراضي فقط لحكمه بل إنه فرض بالقهر والقتل المذهب الشيعي على الشعوب المسلمة السنية وقتل حوالى مليون من السنة وعندما احتل بغداد عام ١٥٠٨، هدم ما كان فيها

من قبور أئمة سنة وذبح جماعة من العلماء، ولقدوصلت الاخبار الى الجميع آنذاك بأن مذبحة عظيمة أصابت السنة ببغداد على يد الصفويين.

وقد أرسل سليم الأول وفدًا إلى المماليك ليحذرهم من أي تحالف مع الصفوي ودعاهم إلى التحالف ضده ولكن المماليك اعلنوا التزام الحياد ظاهريا وإن كانوا فيما يبدو للعثمانيين يميلون لجانب الصفويين ولا ينسى السلطان سليم ان الصفوي ساعد شقيقه الأمير أحمد فى العصيان على والده وعليه بعد حكمه واستقبل من فرّ من أولاد احمد عنده، مما جعل السلطان سليم يعتبر الشاه إسماعيل ودولته خصمه الألدّ.

وقبل المعركة طارد سليم الاول التركمان العلويين الموالين للصفويين الذين اثاروا تمرد وقلق داخل الاناضول ، وأعدمهم. ثم كانت معركة چالديران ، وهى من المعارك الفاصلة في تاريخ المسلمين ولا أبالغ إن قلت أنها مثل حطين ضد الصليبين وعين جالوت ضد التتار فمعركة جالديران كانت ضد الصفويين لو لا قدر الله لم تتم لكانت جزيرة العرب آسيا كلهم شيعة

وعندما قرر سليم الأول أن يخوض هذه الحرب كانت الشورى هي الأساس ، حيث جمع السلطان سليم الأول رجال الحرب والعلماء والشيوخ والوزراء في مدينة أدرنة في ١٩ من المحرم ٩٢٠هـ= ١٦ من شهر مارس ١٥١٤م ، وذكر لهم.. خطورة الصفويين في إيران، واعتداءهم على حدود الدولة العثمانية. واعتداءهم بوحشية على أهل السنة في وسط آسيا والهند وأفغانستان.. ، وخطورة تمددهم الى تركيا والشام ومصر.. واقتنع الجميع بضرورة الجهاد ضد الدولة الصفوية الشيعية

وخرج السلطان سليم الاول على رأس جيش كبير من ١٤٠ الف جندي من أدرنه أقصى غرب الدولة العثمانية إلى إسطنبول ثم الى الأناضول فتبريز في مسيرة طويلة وترك العاصمة لولي العهد الأمير سليمان.. وعمل السلطان سليم على تأمين جبهته من الخلف بهدوء وتمثل ذلك في استقرار علاقاته الدبلوماسية مع الدول المجاورة له وهم النمسا وهنغاريا وروسيا..كما قام بتجميع حلفاء له فقد راسل السلطان سليم عبيد الله خان الأوزبك يذكّره بقتل عمه ، ويحثه على الانتقام من إسماعيل الصفوي، ويعلمه عن النوايا بالتحرك ضد إيران، ويوصيه بمهاجمة خراسان بمجرد وصول الجيش العثماني إلى إيران، وكان هدف السلطان سليم من ذلك أن يجعل إيران بين شقي الرحى من الشرق بهجوم عبيد الله خان على خراسان.. والغرب من ناحيته

وجاءه الرد بالموافقة وأنه انتصر على القوات الصفوية في سمرقند.وتحرك السلطان سليم على رأس جيش يبلغ ١٤٠الف وصل قونية بعد ٤٠ يوم فاستراح لمدة ثلاثة أيام، ثم واصل سيره ، وحين وصل إلى مشارف

قيصرية، بعث برسوله إلى علاء الدولة التركماني الشيعي يختبره طالبا منه المساهمة في حرب الصفويين، لكن علاء الدولة اختلق الأعذار في عدم المجيء إليه، متعللا بكبر سنه وإنه لا يستطيع القيام بأي مجهود لكونه تحت الحماية المملوكية. ولكنه لم يلتزم الحياد ، فما إن مضى السلطان سليم في طريقه حتى هاجم علاء الدولة ساقة الجيش بإيعاز من السلطان قانصوه الغوري..

ولكن السلطان سليم كان مدرك لذلك فترك ٤٠ ألفا من جنده بالقرب من قيصرية، للحفاظ على مؤخرة الجيش والأمن بالأناضول من أي اختراق قد يحصل ، مع ذلك فالسلطان لم ينس فعلة علاء الدولة فانتقم منه عند عودته. وبدأت حرب جمع معلومات بين الطرفين، فنقلت العيون لسليم الأول أن الشاه إسماعيل الصفوي ينوي تأخير القتال إلى فصل الشتاء؛ حتى يهلك العثمانيين جوعًا وبردًا، وأن إسماعيل قد ينسحب إلى داخل الصحراء على حدود أذربيجان، فأرسل سليم الأول بسرعة جيوشه الجرارة قبل دخول الشتاء حتى وصل إلى جالديران، واحتل الأماكن الهضبية؛ وارسل رسالة الحرب المعنوية من سليم الاول الى اسماعيل الصفوي.. "إن كنت رجلا فلاقني في الميدان، وأرفقها بمجموعة من الملابس النسائية والعطور وأدوات الزينة وذلك استهزاء بشخص الشاه لتهربه وتقاعسه من المسير إليه ويستعجله بالحرب، وهو ما دفع بالشاه إسماعيل بالتحدي وواعده بجالديران قائلا له: "وأنا أيضا أعد العدة للحرب."

وفي صبيحة يوم الأربعاء ، ٢ رجب سنة ٩٢٠هـ-٢٣ أغسطس سنة ١٥١٤م ، وما إن أعلنت ساعة الحرب حتى هدرت المدافع العثمانية وتعالت أصوات الجند من كلا الفريقين. وبعد معركة حامية الوطيس، انتصر العثمانيون، وانكسر جيش العدو وسقط أقوى قادته صريعًا في أرض المعركة ووقع الكثير من قادته بالأسر، وأُسرت أيضا إحدى زوجات الشاه، وأما الشاه فقد جُرِح في ذراعه وفر من المعركة متجهًا صوب تبريز بعد أن أنقذه أحد ضباطه من الوقوع في الأسر، مما حدا السلطان سليم الأول أن يأمر أحد قادته بتعقب الشاه فى كل مكان لقتله الأمر الذي جعل الشاه يترك تبريز ويلوذ بالفرار. أما من وقع بالأسر من قوات الشاه إسماعيل، فقد أمر السلطان بإعدامهم جميعًا، وأن يصنع من جماجم القتلى هرم ليُنصب في ساحة المعركة.

وواصل السلطان سليم الأول سيره حتى احتل تبريز عاصمة دولة الصفويين وجعلها مركزًا لعملياته الحربية، ولكن السلطان سليم الأول توقف مضطرا بانتصاره فى جالديران بسببين.أولهما دخول الشتاء بقسوة والجليد وتعب الجند بسبب البرد القارس. وثانيهما تمرد بعض قادة الانكشارية من مواصلة الزحف فكتمها سليم حرصا على وحدة جيشه وعند رجوعه فى أول استراحة أعدمهم جميعا لتمردهم

وكلها مواقف تؤكد أن السلطان سليم الأول كان يتسم بمنتهي الحزم والقسوة مع الأعداء والخونة والمتمردين ، وقد أسفرت هذه المعركة عن ضم شمالي العراق وديار بكر ومدن كثيرة إلى الدولة العثمانية، ومناطق أكراد شرق ايران وقد فوض السلطان سليم الأول الزعيم الكردي ادريس البدليسى في ادارة اقليم الكرد مفوضا منه وتم استقرار المسلمين في آسيا الصغرى وانحصار النفوذ الشيعي في جنوب ووسط إيران ووصلت معلومات للسلطان سليم الاول بعد معركة جالديران عن وجود علاقة وثيقة وتنسيق بين الصفويين والبرتغاليين ألدّ أعداء الإسلام، الذين تحركوا مستغلين انشغال العثمانيين بقتال الصفويين، وأحكموا سيطرتهم على كافة الطرق القديمة بين المشرق والمغرب.

فقد فشل المماليك في تحجيم دور البرتغاليين في البحر الأحمر ولابد من أن تحمل دولة أخري قوية هذه المهمة بدلًا منهم ، وجدير بالذكر أن الدول الإسلامية المتعاقبة في تاريخ العالم الإسلامي كانت تسقط القوية منها الضعيفة حتي تتمكن من تحمل مسئولية العالم الإسلامي وتدافع عنه وعن مقدساته ، وذلك عندما تضعف الدولة القائمة وتعجز أمام أعداء الأمة ، وهي ظاهرة يسميها الدكتور جمال حمدان ظاهرة السيولة السياسية وقد كتب عنها ما ملخصه :

(– فرغم أن مصر ستفقد استقلالها مرات طوالًا في العصور الوسطي لإمبراطوريات أو خلافات واسعة ، فكثيرًا ما سنجابه بها تتحرك في الميدان الدولي كقوة لها وزنها الخاص ، ولا ينقصها الحكم الذاتي ، أو قد تفقد استقلالها لأسرة حاكمة أجنبية ، ولكنها من داخل تلك الأسرة تتصرف كدولة مستقلة دولة داخل الدولة كما قد نقول وتبرز فيها من جديد خصائص شخصيتها الاستراتيجية الكامنة ولا مفر لنا لهذا من أن نعد مسألة السيادة أو التبعية في تاريخ مصر الإسلامية مسألة نسبية أو خاصة تستلزم الاستدراك أو التحفظ في الحكم . والواقع أن العصر الإسلامي الوسيط عمومًا يمتاز سياسيًا بخاصية فريدة ، بدونها قد نخطئ فهم الخريطة السياسية كلها ، تلك هي " السيولة السياسية " غير العادية فلقد كان العصر عصر الدين ، عصر القومية الدينية ، وكان الإسلام هو العقيدة والعصبية ، والجنس والجنسية ، والوطن والوطنية جميعًا ، وكان روح العصر أن ينتقل المسلمون بحرية وبلا قيود داخل دار الإسلام أو الكومونولث الإسلامي ، كذلك غلبت فكرة الوطن المحلي علي الوطن الإقليمي فكان المسلم يُنسب إلي بلدته أكثر مما ينسب إلي بلده ، فيُقال البغدادي ، أو البصري أو السامرائي ولا يُقال العراقي ، ويقال الدمشقي أو الحلبي أو الطرابلسي ، أو المقدسي ولا يقال السوري ، والقاهري أو السكندري لا المصري ، والقابسي ، الوهراني ، والفاسي ، لا المغربي وهكذا

أما من الناحية السياسية فلم تكن الوحدات الجغرافية الإقليمية بنواتها الطبيعية المحددة ، ولا كانت فكرة الوطن والوطنية بمعني القومية الحديث والولاء الضيق ، ظاهرة متبلورة أو جامدة ، بل كانت غير واضحة متميعة داخل فكرة الوطن الإسلامي الكبير ومتداخلة معها بصورة شبه هلامية ، بالتالي كان العالم الإسلامي وعاءًا ضخمًا أو هيكلًا أخيرًا تقوم فيه الدول المختلفة وتتعدد ، وتتنافس وتتصارع ، ولكنهًا أساسًا تقوم علي أصل أو أساس شخصي أو أسري بحت – أي حكومة عائلة بعينها– أو حاكم بعينه في الاعتبار الأول ، ولقد تستقر علي نواة إقليم جغرافي كامل ، أو محدد بعينه أو أكثر ولكنها ممكن دائمًا أن تنتقل أو تتمدد إلي أيما أبعاد أقليمية جغرافية يستطيع أن تصل إليها نفس تلك الأسرة الحاكمة بلا تحديد سوي قوتها السياسية وطاقتها التوسعية ، وبلا أي عائق أو حرج قومي ما بقيت في إطار الوطن الإسلامي الكبير نفسه

بعبارة أخري للدول السياسية الإسلامية أبعاد أو مستويات ثلاثة تتداخل وتترجرج بسهولة وبلا تحديد واضح فهي علي المستوي القاعدي حكومات شخصية ، ودول شخصية ، وإمبراطوريات شخصية ابتداء وانتهاء ، وهي علي المستوي الجغرافي لا ترتبط بنواة إقليمية إلا عشوائيًا وكما اتفق ، وهي علي المستوي الأعلي والنهائي لا ترتبط إلا بحدود العالم الإسلامي الكبير نفسه ، أخيرًا إنها باختصار شديد دول شخصية لا جغرافية

من هنا كان الحكام يتحركون من قطر إلي قطر أو يفتحون أو يضمون قطرًا من قطر دون حساسيات إقليمية أو قومية حادة ودون أي مدلول أو محمول استعماري . الاستثناء الوحيد – وبعنف وضراوة عند ذلك – كان في حالة الكفار من وثنيين أو غير مسلمين كالتتار والصليبيين ويبدو أن الظاهرة نفسها وبرمتها كانت تسود داخل أوروبا المسيحية المعاصرة حيث كان الجرمان يحكمون في إيطاليا أو إنجلترا ، أو الفرنسيون في ألمانيا ، أو الإسبان في هولندا ... إلخ

ليس هذا فحسب ، الأكثر منه ، وما قد يبدو لنا اليوم الأغرب ، أن هذه الدول ، تمامًا مثلما سلم البطالسة أنفسهم من قبل للرومان ، كثيرًا ما كانت تسلم نفسها بنفسها لبعضها البعض ، ربما بكثير من الصراع السياسي والصدام العسكري ، ولكن بغير حساسيات قومية حادة تستثار أو تتراكم ، وبلا نعرات إقليمية تُثلم أو تُمتهن ، وإنما الأقوي والأقدر علي المحافظة علي الإسلام والعصبية الإسلامية في وجه الخطر الأجنبي

، أي الكفار "كالتتار والصليبيين" هو ببساطة الذي يُدال إليه وربما يُستدعي استدعاء من جانب المُدال منه لكي يقوم بالمهمة المقدسة التي تعلو علي الطرفين جميعًا)٢٦

أما عن مفهوم الاستقلال في المصطلح الإسلامي فقد عبر عنه الدكتور محمود الحويري في معرض كلامه عن عصر أحمد بن طولون كنموذج لاستقلال مصر في تلك الأزمان فقال :

(- الواقع أن الاستقلال في المصطلح الإسلامي يختلف عما نفهمه في الوقت الحاضر من تحقيق السيادة الخارجية ، بمعني ألا يكون علي الدولة نفوذ غير نفوذ أبناءها ، وأن هذا الاستقلال لا يشوبه أي تدخل في شئون الدولة الداخلية أو أي قيد علي مكانتها في المجتمع الدولي ، أما في العصور الوسطي ، فإن العالم الإسلامي كان يؤلف وحدة روحية ووحدة سياسية برئاسة الخليفة إمام المسلمين ، وكان الناس لا يعترفون بحكم لا يعترف به خليفة ، ولا ينظرون إلي من يغفل أمر الخلافة إلا نظرتهم إلي الخوارج الذين يشذون عن رأي الجماعة ، وللوالي أن يعطي نفسه من السلطات الداخلية ما طاب له ، وله أن يورث الحكم لأولاده علي الصورة التي يراها ، وليس عليه إلا أن يعترف بالخليفة إمامًا للمسلمين ويعترف به الخليفة حاكمًا شرعيًا علي البلاد التي يحوزها ، ومن هنا ينبغي أن نضع في الاعتبار أنه لم يكن من الممكن أن يستقل أحمد بن طولون بمصر نهائيًا عن الخلافة العباسية – وبمعني آخر كان ظهور الدولة الطولونية في مصر يمثل انتقالًا من عصر التبعية المطلقة إلي عصر الاستقلال بالصورة التي عرفناها -)٢٧ ، (- - ومن ثم لم يعد للخليفة العباسي أي نفوذ سياسي في مصر فيما عدا أنها اكتفت بذكر اسمه في الخطبة ونقشه علي السكة ، كما دأبت مصر علي إرسال جزء من الخراج إلي بغداد عن طواعية ، تعبيرًا عن انتماءها الديني للإسلام الذي يجسده الخليفة من ناحية ، وكدليل ارتباط تقوم عليه وحدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها كانت جميع الدول المستقلة في العالم الإسلامي تحرص عليه من ناحية أخري - -)٢٨

ونستنتج مما سبق من كلام د جمال حمدان أن سقوط الدولة الضعيفة علي يد الدولة القوية لا يحمل أي مدلول استعماري فعلي حد قوله : من هنا كان الحكام يتحركون من قطر إلي قطر أو يفتحون أو يضمون

---

٢٦ نقلًا عن كتاب مختارات (٣) من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان - الفصل الثاني – شخصية مصر السياسية - مكتبة مدبولي

٢٧ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٠٣ ، ١٠٤

٢٨ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٠٤

قطرًا من قطر دون حساسيات إقليمية أو قومية حادة ودون أي مدلول أو محمول استعماري . الاستثناء الوحيد – وبعنف وضراوة عند ذلك – كان في حالة الكفار من وثنيين أو غير مسلمين كالتتار والصليبيين

وإذا أسقطنا هذا الكلام علي ما حدث من البرتغاليين ضد الأمة الإسلامية سنجد أن العثمانيين قد حلوا محل المماليك للدفاع عن الأمة سواء ضد البرتغاليين أو ضد المد الشيعي

أما العجيب أن الكثير من أهل السنة لا يذكرون فضل السلطان سليم الأول ذلك الرجل الذي صنع مجدا وانتصارًا للسنة ويراه البعض رجلا عسكريا شديد القسوة رغم أن طبيعة المرحلة هي التى تختار قادتها وبعض الآلام ضروريه لصنع النصر ، وكان أعداء الأمة يتميزون بالقسوة والشراسة في ذلك الوقت ولم يكن أحد يتخيل في قرارة نفسه أن السلطان الغوري لديه القدرة هو ومماليكه علي هزيمة مثل هذا الرجل الذي يتسم بالحسم والقوة ويمتلك أقوي مدفعية في العالم في ذلك الوقت

وكان العثمانيون قد نجحوا في دفع المدافع إلي ساحات القتال بينما كانت الجيوش المملوكية لم نسمع عن وجود المدافع إلا في القلاع والحصون والأبراج ، بينما استطاع العثمانيون تركيب عجلات للمدافع لجرها بالثيران إلي ميادين القتال ، فحولوها من وسيلة للدفاع إلي سلاح للهجوم مما أدي إلي تفوقهم علي خصومهم

وأضف إلي كل ما سبق أن عصر المماليك البرجية كان قد وصل إلي فترة اضمحلال وضعف وأصبحوا غير قادرين علي مواجهة أعداء الأمة وخاصة ما يصنعه البرتغاليون في البحر الأحمر بالقرب من ميناء جدة القريب من المقدسات الإسلامية ، وقد حاول السلطان الغوري السيطرة علي الموقف في البحر الأحمر وقام بتحصين ميناء جدة وأرسل حملة للقضاء علي تجاوزات البرتغاليين ولكن حملته فشلت ، إذن فقد حان الوقت لقيام دولة اسلامية أخري قادرة علي صد الأعداء بعد أن فشلت الدولة المملوكية ، فقامت الدولة العثمانية بالقضاء علي الدولة المملوكية وتحملت مسئولة العالم الإسلامي

معركة مرج دابق

وإليك وصف المؤرخ ابن اياس الحنفي لمعركة مرج دابق التي وقعت في ٢٤ أغسطس سنة ١٥١٦م في شمال سوريا بين المماليك بقيادة السلطان الأشرف قنصوة الغوري والعثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول : (في يوم الخميس رابع عشره ورد علي السلطان مطالعة[٢٩] من عند سيباي نائب الشام وقد بلغه حركة سفر السلطان من مصر إلي البلاد الشامية فأرسل يقول له : يا مولانا السلطان إن البلاد الشامية مغلية

[٢٩] مطالعة = رسالة مكتوبة

والعليق والتبن ما يوجد والزرع في الأرض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك فلا يتعب السلطان سره ولا يسافر وإن كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية – – فلم يلتفت السلطان إلي كلامه واستمر باقيًا علي حركة السفر إلي حلب)٣٠ ، (وفي يوم الأربعاء ويوم الخميس أنفق السلطان علي المماليك بقية النفقة – – وفي يوم السبت ثالث عشرينه أكمل السلطان النفقة علي المماليك قاطبة من قرانصة وجلبان ونادي لهم في الحوش أن السفر أول الشهر فاضطربت أحوال المماليك وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال ، وصارت المماليك يهجمون الطواحين ويأخذون منها الخيول والبغال والأكاديش ، فغلقت الطواحين قاطبة وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ووقع القحط بين الناس وضج العوام وكثر الدعاء علي السلطان)٣١ ، (وفي يوم السبت سادس عشر شعبان ٩٢٢ هـ أشيعت هذه الكاينة العظيمة التي طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ، فلما خرج السلطان من حلب توجه إلي حيلان فبات بها فلما أصبح يوم الأربعاء حادي عشرين رجب رحل السلطان من حيلان وتوجه إلي مرج دابق فأقام به إلي يوم الأحد خامس عشرين رجب وهو يوم نحس مستمر ، فما يشعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان – – فقيل أول من برز للقتال الأتابكي سودون العجمي وملك الأمراء سيباي نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان ، فقاتلوا قتالًا شديدًا هم وجماعة من النواب فهزموا العثمانيين وكسروهم كسرة مهولة وأخذوا منهم سبعة صناجق – – فهم ابن عثمان بالهروب أو يطلب الأمان وكانت النصرة للمماليك أولًا ويا ليت لو تم ذلك ، ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان لا تقاتلوا شي وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم ، فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال ، فبينما هم علي ذلك وإذا بالأتابكي سودون العجمي قد قُتِل في المعركة وقُتِل ملك الأمراء سيباي٣٢ بك نائب الشام فانهزم من في الميمنة من المماليك ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة – – ويقال إن خاير بك كان موالسًا علي السلطان في الباطن وهو مع ابن عثمان علي السلطان وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد فكان أول من هرب هو قبل المماليك قاطبة وكان ذلك خذلانًا من الله تعالي للمماليك حتي نفذ القضاء والقدر – – وانعقد بين العسكرين غبارًا حتي صار لا يري بعضهم بعضًا وكان نهار غضب من الله تعالي قد انصب علي المماليك وغلت أيديهم عن القتال)٣٣ (وقد أقامت هذه الوقعة من طلوع الشمس إلي بعد الظهر وانتهي الحال علي

---

[٣٠] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي)صفحة ١٩

[٣١] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي)صفحة ٢٠

[٣٢] كان نائب الشام سيباي بك قائد الميمنة بينما كان خاير بك نائب حلب هو قائد الميسرة وقد تم قتل سيباي بك أثناء القتال وانسحب خاير بك بدون سبب أثناء المعركة وهناك من أوقع الخلاف بين المماليك القرانصة والمماليك الجلبان في أحرج مواقف المعركة

[٣٣] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٣٥ ، ٣٦

أمر قدره الله تعالي فقتل في تلك الساعة من العثمانيين ومن المماليك ما لا يحصي عدده)٣٤ ومات الغوري في المعركة من شدة القهر بعد أن طلب من المماليك القتال وقال لهم (هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة فأخذ يستغيث فلم يسمع له أحد ، ويُروي أن الغوري عندما رأي جيشه يفر من أمام عينيه وتحقق من الهزيمة أصيب بالشلل وطلب جرعة من الماء فجاءوا له بها ولكنه لم يتمالك نفسه وهوي من فوق صهوة فرسه ميتًا وداسته الخيل والغريب أنه لم يُعثَر له علي جثة بعد المعركة)٣٥ ، وهكذا قام خاير بك بدوره المخطط ليفي بما قطعه علي نفسه للسلطان سليم الأول ، وقد قال ابن اياس عن ذلك (وممن كان موالسًا علي السلطان الغوري في الباطن خاير بك نائب حلب ، فإنه أول من كسر عسكر السلطان ، وانهزم عن ميسرته ، وتوجه إلي حماه ، ولما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه ، فلما حضر إليه خلع عليه وصار من جملة أمرائه ، ولبس زي التراكمة ، وقص ذقنه ، وسماه السلطان العثماني (خاين بك) لكونه خان سلطانه وطاع ابن عثمان ، فلما جري ذلك تسحبت مماليك خاير بك ، وتوجهوا إلي مصر ، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان

، واستمر سليم الأول يزحف بجيشه نحو مصر ويضم إليه كل ما يقابله من بلاد ، وعندما تأكدت وفاة السلطان الغوري طلب الأمراء المماليك من الأمير طومان باي أن يتولى السلطنة

وما كتبه ابن اياس رحمه الله يُعد وصفًا بليغًا لما حدث ، ومن الواضح أن ابن إياس الحنفي كان يتميز بأسلوب رائع

وصف اسلوب ابن اياس الحنفي

وإليك وصف اسلوب المؤرخ ابن اياس الحنفي كما ورد بكتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان ١٨٩٦-١٩٨٦ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ١٩٩٨ – مقتطفات من صفحة ٢١٩ وما بعدها : – – وفي هذا القسم من روايته ، أعني تدوين حوادث عصره ، وهو يشمل زهاء نصف قرن ، من أواخر القرن التاسع إلي سنة ٩٢٨هـ ، يبدي ابن إياس نوعًا من الطرافة والبراعة ، ويبدي بالأخص دقة في الملاحظة ، ومقدرة لا بأس بها في تحليل الأنفس والعواطف ، وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلي سير الحوادث نفسها وإلي المفاجآت والوقائع الغريبة التي قُدِّر للمؤرخ أن يشهدها في خاتمة حياته ، فهي التي تغذيه خلال روايته بما يلاحظ وما يعلق ، ونستطيع بالأخص أن

---

[٣٤] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٣٨

[٣٥] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٨٠

نستخرج من رواية ابن إياس خلال المجتمع المصري في هذا العصر ، وأن نتعرف هذا المجتمع المستهتر الطروب في بعض أثوابه الحقيقية ، وأن نقرأ في سلوكه وتصرفاته كثيرًا من عواطفه وميوله وبوادر نفسه ، وأن نقف علي صور شائقة من عاداته وأحواله الاجتماعية ، وهذا ما تعرضه رواية الحوادث ذاتها ، ولكن لابن اياس فضلًا في ذلك ، هو أنه يعني في كثير من الأحيان بتدوين بعض أحوال الحياة الخاصة ، وتتبع آثار الحوادث في نفس الشعب وطبقاته الإجتماعية المختلفة ، فنري في روايته ، طبقة الأمراء والأرستقراطية تتحكم في سائر الطبقات اجتماعيًا واقتصاديًا ، ولا تبحث إلا عن تحقيق أهوائها ورفاهيتها ، عاش الناس أم هلكوا ، ونشعر بوحي القضاة وغيرهم من رجال الدين واضحًا في سياسة السلاطين ، كما نراهم سند السلاطين في إباحة المصادرة ونهب الأرزاق والأموال ، وإصدار ما يحقق أهواءهم من الفتاوي والأحكام ، ونري الطبقة المتوسطة منكمشة لا تكاد تأخذ بقسط في مجري الحوادث ، أما الطبقة الدنيا أو العامة فنراها صاخبة فائرة ، تظهر في طليعة كل اضطراب ، ولكنها كعادتها تهدأ وتختفي أمام القوة ، ويتتبع ابن إياس حركات العامة بصفة خاصة ، فيصف سلوكهم ونزعاتهم وعواطفهم من غضب ورضى ومرح واكتئاب ، في نبذ ممتعة كثيرًا ما تثير الابتسام ، أما نظم السياسة والحكم والتشريع والإدارة فيعرضها ابن إياس في سياق روايته خير عرض ، فيشرح لنا كيف كان يلي السلطان العرش ويباشر الحكم بنفسه أو علي يد خاصته وأمرائه ، وكان نظام البلاط والحكومة يومئذ من أغرب النظم الملوكية التي عرفت ، يمتزج فيه التشريع والتنفيذ والقضاء ، وسلطات الحرب والمالية في صعيد واحد ، – –ونري مما يذكر إلي أي حد كانت دولة المماليك الشراكسة تمعن في المركزية والاستئثار بالسلطات – – كذلك يصف التقلبات الاقتصادية من غلاء ورخاء ، وعلي الجملة فإنه يصور لنا في سياق روايته مجتمع عصره سواء في الحياة العامة أو الخاصة أو في الخلال والعادات ، والميول والأهواء تصويرًا قويًا شائقًا ، ومن حسن الحظ أنه عاصر نهاية المماليك وبداية العصر العثماني

وكانت حوادث الفتح العثماني آخر ما دون قلم ابن اياس فهو يصل في روايته حتي خاتمة سنة ٩٢٨هـ – ١٥٢٢م – ونحن نعرف أن المؤرخ توفي بعدئذ بقليل سنة ٩٣٠هـ – – فهو يترك لنا عن هذه الحوادث الشهيرة سجلا يوميا مسهبًا يستند إلي تحقيق المعاصرة والمشاهدة ، وهو لا يمهد فيه إلي الحوادث ، ولا يعني بربطها بل يدونها مرسلة كما وقعت ويحصي آثارها إحصاء من رأي وسمع ، وكل ما هنالك ان ابن اياس يطلق العنان لشعوره وعواطفه ، فنراه يحمل علي السفاكين والظلمة في عبارات شديدة وأحيانًا مؤثرة ، – –ويفيض في تفاصيل الواقعة الهائلة التي نشبت بين الغزاة وبين الجيش المصري في مرج دابق سنة

١٥١٦م وما أوقعه الغزاة بعسكر مصر من سفك ونهب ، ويصف صدي النكبة في القاهرة وكيف قام (نعي السلطان في ذلك اليوم ونعي الأمراء والأعيان الذين قُتِلوا وصار في كل حارة وزقاق وشارع في القاهرة صراخ وبكاء ، ورجت القاهرة وضجت الناس واضطربت الأحوال وكثر القيل والقال) ثم يقف المؤرخ قليلًا ليصف السلطان الغوري وخلاله ويعدد مثالبه ومآثره وينظم في ذلك قوله :

طالعت تاريخ الملوك فلم أري فيما سمعت حوادثًا مما جري

لا زالت الأيام يبدو فعلها بعجائب وغرائب بين الوري

لكن هذه وقعة ما مثلها سبقت لسلطان ولا متأمرا

والأشرف الغوري كان مليكنا لكنه قد جار فينا وافتري

أعماله ردت عليه بما جني والدهر جازاه بأمر قدرا

وصلنا في سرد الأحداث إلي عصر السلطان الأشرف طومان باي

الأشرف طومان باي ونهاية دولة المماليك البرجية في مصر

تولي السلطان الأشرف طومان باي حكم مصر سنة ١٥١٦م بعد مقتل السلطان الغوري وقد أجمع معظم المؤرخون أنه كان سلطانًا عالي الهمة وقليل الأذى للرعية ، وقد كان السلطان الغوري قد عينه نائبًا له في مصر قبل أن يتجه إلي لقاء العثمانيين في مرج دابق بشمال سوريا ، وعندما تأكدت وفاة الغوري خلال المعركة طلب الأمراء في مصر من طومان باي أن يتولى السلطنة ،(ولقد تمنع طومان باي عن قبول السلطنة مدة خمسين يومًا إلا أنه قبلها بعد ذلك تحت ضغط)[٣٦] ، (وحين تولي طومان باي السلطنة كانت البلاد في أقصي درجات التدهور والدولة المملوكية في آخر رمق ، نتيجة لعوامل متعددة ، إذ قد استشري الفساد في كيان الدولة المملوكية – – وكأنها حتمية النهاية ، ولم يعد هناك أي أمل في استنقاذها)[٣٧] ، وبالرغم من كل هذه المعوقات حاول طومان باي أن يستعد للحرب الحتمية (بينما رفض أن يأخذ أموال الناس قهرًا أو من أي سبيل حتي لا تحدث في أيامه مظلمة أبدًا)[٣٨]

وكان الخليفة والقضاة والعلماء قد حضروا المعركة مع السلطان الغوري وأصبحوا في قبضة السلطان سليم الأول بعد المعركة ، وحدث أن فر أحد القضاة الأربعة وعاد إلي مصر فتبقي مع السلطان سليم الأول ، الخليفة وثلاثة من القضاة

---

[٣٦] طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة ٤١
[٣٧] طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة ٥٣
[٣٨] طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة ٥٩

ويقول ابن اياس : وأما ما كان من أمر سليم شاه ابن عثمان فإنه أقام بالميدان الذي في حلب فتوجه إليه أمير المؤمنين المتوكل علي الله والقضاة الثلاثة وهم قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل وقاضي القضاة محيي الدين الدميري المالكي وقاضي القضاة شهاب الدين الفتوحي الحنبلي ، وأما قاضي القضاة محمود بن الشحنة فإنه هرب مع العسكر إلي الشام ونُهِب جميع بركه وقماشه ، ودخل إلي الشام في أنحس حال ، وقيل لما دخل أمير المؤمنين علي ابن عثمان وهو بالميدان عظمه ، وأجلسه وجلس بين يديه فأشيع أنه قال له : أصلكم من أين ؟ فأجاب : من بغداد فقال سليم الأول : نعيدكم إلي بغداد كما كنتم والأقوال في ذلك كثيرة ، ، فلما أراد الخليفة الانصراف خلع عليه خلعة سنية من ملابسه ، وأنعم عليه بمال له صورة ورده إلي حلب ، ووكل به ألا يهرب ، وقيل لما دخل علي ابن عثمان القضاة الثلاثة المذكورون وبخهم بالكلام ، وقال لهم : أنتم تأخذون الرشوة علي الأحكام الشرعية ، وتسعون بالمال حتي تتولوا القضاء ، وما منكم من أحد يرشد إلي الخير ، لأنكم لم تمنعوا سلطانكم عن المظالم التي كان يفعلها بالناس ، وأنتم ترون ذلك منه ولا تنكرونه ، وأشاعوا من هذه الأخبار العجائب والغرائب ، والمعول في ذلك علي الصحة ، وأخبرني من رأي سليم شاه ابن عثمان أنه مربوع القامة ، واسع الصدر ، وافر الأنف ملئ الجسد حليق اللحية ليس له غير الشوارب ، كبير الرأس عمامته صغيرة دون عمائم أمرائه ، فلما جاء إلي حلب سلمه أهلها المدينة من غير نزاع ، وهرب نائب قلعة حلب ، وتوجه إلي الشام مع العسكر ، وترك أبواب قلعة حلب مفتوحة

وعندما دخل السلطان سليم الأول حلب ، خُطِب باسمه ودُعِي له علي المنابر وزُينت له المدينة وأوقدت له الشموع علي الدكاكين ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء وفرح الناس به فرحا شديدًا ، وانتمي اليه الخواجا ابراهيم السمرقندي والخواجا يونس العادلي والعجمي الشنقجي ، وكان هؤلاء من أخصاء الغوري ، وكانوا مع ابن عثمان في الباطن ، ويكاتبونه بأحوال السلطان وما يقع من أخبار المملكة ، فلما فُقِد السلطان الغوري أظهروا عين المحبة لابن عثمان وصاروا يحطون علي الغوري ويذكرون أخباره الشنيعة لابن عثمان ، وصاروا من جماعته ونسوا إحسان الغوري إليهم كما يُقال في المعني :

لقاء أكثر من يلقاك أوزارُ فلا تبالي أصدوا عنك أو زاروا

أخلاقهم حين تبلوهن أوعار وفعلهم منكر للمرء أو عارُ

لهم لديك إذا جاءوك أوطار إذا قضوها تنحوا عنك أو طاروا

وكان السلطان طومان باي في ورطة حقيقية ، فقد نفذت الأموال ، والمماليك يطلبون النفقة دائمًا وذهب الغوري بخيرة الرجال في مرج دابق وظهر كل أمير علي حقيقته بعد الانتصار الساحق للعثمانيين ، وخاصة خاير بك نائب حلب الذي كان السبب الرئيس في الهزيمة عندما انسحب بميسرة الجيش بالكامل بدون أي مبرر ، وربما قد فكر طومان باي بعمق فيما حدث فوجد أن خيانة خاير بك جاءت في الوقت الذي ناسب سليم الأول وبالتالي فقد تتعدد الخيانات بعد ذلك ولكن طبقًا للأوقات المحددة لها ، فكأن سليم الأول قد اشتري كل من حول الغوري إلا القليل ، وحدد لكل منهم دوره وتوقيت تنفيذه ، وبالتالي لم يعد يثق طومان باي فيمن حوله ، لذلك قد يكون هذا سبب رفضه السلطنة من البداية ، ولكنه اضطر لقبولها في النهاية ، فلابد من وجود سلطان يستكمل رحلة الغوري للنهاية

ويقول ابن إياس (– – ثم في ذلك اليوم عرض السلطان طومان باي عجلات من خشب تجرها أبقار وفيها رماة بالبندق الرصاص ، فكانوا نحو ثلاثين عجلة أو فوق ذلك وعرض جمالًا وفوقها مكاحل ورجال يرمون بالبندق الرصاص من المكاحل فوق ظهور الجمال – – فقوي قلب العسكر في ذلك اليوم علي القتال – – وأظهر السلطان أنه يخرج بنفسه إلي قتال ابن عثمان واستحث بقية الأمراء علي الخروج بسرعة ولم ينفق علي الأمراء شيئًا وقال لهم : اخرجوا قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم فإن بيت المال لم يبق فيه لا درهم ولا دينار وأنا واحد منكم

سليم الأول يعرض علي طومان باي أن يكون نائبه في مصر

أرسل السلطان سليم الأول رسالة إلي السلطان طومان باي يدعوه فيها للتسليم كما أرسل رسائل أخري للأمراء ، وهكذا جاء عرض حكم مصر لطومان باي كنائب لسليم الأول في مصر ، لتصبح مصر ولاية تابعة للسلطنة العثمانية ويصبح طومان باي والي عليها

ولكن هناك فرق كبير بين مصر كسلطنة ومصر كولاية ، وهذا الفرق يعرفه طومان باي جيدًا فكيف لمصر التي كانت فاعل مهم في المنطقة تتحول إلي مفعول به ، وكيف يرضي سلطان مصر والشام والحجاز وملك البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين ، كيف له أن يصبح مجرد نائب للسلطان العثماني ، فهل بالفعل لم تعد الدولة المملوكية قادرة علي تحمل مسئولياتها تجاه العالم الإسلامي ، وهل عليها أن تسلم القيادة لدولة إسلامية أخري ، أكثر قوة وعزة ومجد وسيادة ، هل وصل المماليك إلي مرحلة من الفساد والانحطاط لا يمكن تداركها إلا بالاستئصال والاستبدال ؟

وإليك بعض ما ذكره ابن إياس عن رسالة السلطان سليم الأول إلي السلطان طومان باي أو المطالعة علي حد تعبير ابن اياس :

(فالذي أشيع عن مطالعة السلطان غالب ألفاظها باللغة التركية ، فكان من مضمونها : من مقامنا السعيد إلي الأمير طومان باي ، أما بعد فإن الله تعالي قد أوحي إلي بأن أملك الأرض من المشرق إلي المغرب كما ملكها الإسكندر ذو القرنين – – إنك مملوك منباع مشتري ولا تصح لك ولاية وأنا ملك ابن ملك إلي عشرين جد وقد توليت الملك بعهد من الخليفة ومن قضاة الشرع ، وأني أخذت المملكة بالسيف بحكم الوفاة من السلطان الغوري

فاحمل لي خراج مصر في كل سنة كما كان يحمل لخلفاء بغداد – – وأنا أولي منك بخدمة الحرمين الشريفين ، وإن لم تدخل تحت طاعتنا وإلا أدخل إلي مصر وأقتل جميع من بها من الأتراك " المماليك " حتي أشق بطون الحوامل وأقتل الجنين الذي في بطنها من الأتراك " وما كنا معذبين حتي نبعث رسولا ")

وقد أحدثت هذه الرسالة وقعًا مخيفًا ومرعبًا لدي الأمراء بل والشعب المصري كله فقد انتشر محتواها بين الناس وقد تركت أثرًا نفسيًا بالغًا عند طومان باي نفسه ، ورغم كل هذا رفض طومان باي عرض سليم الأول وأصر علي أن مصر سلطنة وليست ولاية تابعة ولن تكون كذلك ، وأنه سلطان مصر وسيدافع عنها حتي الموت ، وأخذ يشحذ الهمم ويشجع المماليك ويعد العدة ويستعرض القوات استعدادًا لملاقاة العثمانين

ويقول ابن اياس : وأشيع أن خاير بك نائب حلب ، الذي عصي ودخل تحت طاعة ابن عثمان ، أرسل مطالعات إلي بعض الأمراء المقدمين ، وهو يرغبهم في الدخول تحت طاعة ابن عثمان ، وشرع يُطنب في محاسنه وعدله بين الرعية ، وأنه إذا دخل مصر يبقي كل أحد من الأمراء علي وظيفته وعلي رزقه ، وكل هذا حيل وخداع ، حتي يتمكن من الدخول إلي مصر

معركة الريدانية (منطقة العباسية الحالية) :

وقعت معركة الريدانية بتاريخ ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢ الموافق ٢٢ يناير ١٥١٧ م، بين السلطان المملوكي طومان باى والسلطان سليم الأول العثماني عندما قرر الأخير التوجه بجيشه صوب مصر بجيش مقداره مئة وخمسون ألفا مقاتل ومعه الكثير من المدافع العثمانية الصنع ، واشترى سليم الأول عدّة آلاف من الجمال وحمّلها مقادير وافرة من المياه ليشرب منها جنده وهم يجتازون الصحراء. ، قاطعا صحراء فلسطين. ، وقد نزلت الأمطار على أماكن سير الحملة مما يسرت على الجيش العثماني قطع الصحراء الناعمة الرمال وذلك بعد أن جعلتها الأمطار الغزيرة متماسكة مما يسهل اجتيازها، وفي أثناء

عبور الجيش العثماني للصحراء تعرض إلى غارات البدو، وتابع العثمانيون زحفهم نحو مصر، فاحتلوا مدينة غزة على الطريق وساروا عابرين صحراء سيناء حتى وصلوا بالقرب من القاهرة . ، وكان السلطان طومان باي مرابطًا في الريدانيّة، وكانت قرية صغيرة تقع على الطريق المؤدية إلى القاهرة. ، وجمع طومان باي حوالي ٩٠ ألف جندي نصفهم من أهالي مصر والنصف الآخر من العسكر المماليك ،وقد استقدم طومان باي ٢٠٠ مدفع ووضعها في الريدانية، وحفر خندقًا على طول الخطوط الأمامية، ووضع مدافعه الكبيرة وأعد أسلحته وبنادقه وحاول شحذ همة مماليكه وقواته ولكن دون جدوى

فقد جبن كثير منهم عن اللقاء حتى كان بعضهم لا يقيم بالريدانيّة إلا في خلال النهار حتى يراهم السلطان، وفي المساء يعودون إلى القاهرة للمبيت في منازلهم .ولم يكن من شأن جيش كهذا أن يثبت في معركة أو يصمد للقاء أو يتحقق له النصر، فحين علم طومان باي وهو في الريدانية بتوغل العثمانيين في الأراضي المصرية حاول جاهدًا أن يقنع أمراءه بمباغتة العثمانيين عند الصالحية، وهم في حالة تعب وإعياء بعد عبورهم الصحراء، لكنهم رفضوا، معتقدين أن الخندق الذي حفروه بالريدانيّة كفيل بحمايتهم ودفع الخطر عنهم، لكنه لم يغن عنهم شيئًا وقام السلطان العثماني بعملية تمويهية بعد اكتشافه للخطة المصرية، بأن أظهر نفسه سائرا نحو العادلية على الطريق للريدانية ولكنه التف بسرعة حول جبل المقطم ورمى بكل ثقله على المماليك بالريدانية من الخلف وكانت تلك حيلة جان بردي الغزالي الذي أبلغ خاير بك ذلك، فوقعت المواجهة بتاريخ ٢٩ ذي الحجة ٩٢٢ الموافق٢٢ يناير ١٥١٧م

والتحم الفريقان في معركة هائلة، وعلى الرغم من عدم رغبة بعض أمراء المماليك في القتال ، فقد أبدى فرسان المماليك شجاعة كبيرة في ذلك اليوم، فلم تكد المعركة تبدأ حتى كرّت ثلّة من فرسان المماليك المدججين بالسلاح الكامل على قلب القوّات العثمانية حيث كانت تخفق راية السلطان الخاصة، وكان على رأس الثلّة السلطان طومان باي نفسه.

والواقع أن السلطان سليم نجا من محاولة لقتله ، فقد أخطأ طومان باي بينه وبين الصدر الأعظم "سنان باشا الخادم"، حيث قبض عليه وقتله بيده ظنًا منه أنه السلطان سليم.

غير أن ما أقدم عليه سلطان المماليك لم ينفع شيئًا، فذهبت كل جهوده أدراج الرياح أمام المدافع العثمانية، فاضطر طومان باي ومن بقي معه إلى الانسحاب إلى نواحي الفسطاط، تاركين في ساحة الريدانية آلاف القتلى.

وبدأ السلطان سليم الإستعدّاد لدخول القاهرة، وكان الثمن الذي دفعه كلًا من العثمانيين والمماليك في هذه الحرب باهظًا للغاية، إذ بلغ مجموع خسائر الفريقين من الجنود حوالي ٢٥,٠٠٠ مقاتل

وكتب ابن إياس (فلما كان يوم الخميس تاسع عشرين ذي الحجة فيه وقعت كاينة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولي الألباب وتضل لهولها الآراء عن الصواب)٣٩ ، (زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلي الجبل الأحمر فلما بلغ السلطان طومان باي ذلك زعق النفير في الوطاق ونادي السلطان للعسكر بالخروج إلي قتال عسكر ابن عثمان – – فركبت الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربيًا وركب العسكر قاطبة حتي سد الفضاء وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم فتلاقي الجيشان في أوائل الريدانية فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الوقعة التي كانت في مرج دابق – – حتي انكسر عسكر مصر وولي مدبرًا ، فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باي – – وهو يقاتل بنفسه في نفر قليل من الرماة والمماليك السلحدارية)٤٠ ، وانتهت معركة الريدانية بهزيمة ساحقة للمماليك ودخل سليم الأول مصر منتصرًا

وكتب ابن إياس (فاستمر السلطان طومان باي – يقع – مع عسكر ابن عثمان ويقتل منهم في كل يوم ما لا يحصي عددهم – – فرأى عين الغلب وقد تكاسل العسكر عن القتال واختفوا في بيوتهم وتفرقت الأمراء واستمر السلطان يقاتل وحده بمفرده في نفر قليل – – وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات في أفعاله فكان كما يقال :)٤١

قليل الحظ ليس له دواء – – – ولو كان المسيح له طبيب

ويبدو أن الجميع قد تخلي عنه والتفوا حول السلطان سليم الأول المنتصر

(– وكان السلطان ، كلما رام أن ينتصر علي ابن عثمان ينعكس فكان كما يقال في المعني)٤٢

إذا لم يكن عون من الله للفتي – – – فأول ما يجني عليه اجتهاده

إذن ظل السلطان طومان باي يقاوم الجيش العثماني ويجمع المماليك ويقاتل في عدة أماكن بأسلوب حرب العصابات حتي تسبب في إزعاج وإرباك السلطان سليم الأول واضطراب أحوال جيشه وبذل طومان باي جهد

---

[٣٩] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٨٠ ولاحظ معي أسلوب ابن إياس في وصف المصيبة التي حلت بسلطان مصر ويبدو أن ابن اياس الحنفي كان شاعر ومثقف وعلي قدر عالي من الوعي وله أسلوب شيق في الكتابة

[٤٠] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٨٢

[٤١] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٩٢

[٤٢] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ١٠٦

غير عادي للتضييق علي العثمانيين في مصر وكان المصريون كما يصف ابن إياس في حالة ضيق شديد مما يفعله الجيش العثماني بمصر وسكانها حتي قيل في ذلك المعني :

نبكي علي مصر وسكانها – – – قد خربت أركانها العامرة

وأصبحت بالذل مقهورة – – – من بعد ما كانت هي القاهرة

وكان من الطبيعي أن يختفي السلطان طومان باي بعد أن تفرق المماليك من حوله وبدا له مما لا يدع مجالًا للشك مدي تكاسلهم عن القتال فذهب طومان باي إلي بعض من يثق به من معارفه ولكن للأسف تم العثور عليه ولم يصدق الناس خبر القبض علي السلطان طومان باي فأمر السلطان سليم الأول بشنقه علي باب زويلة حيث اعتاد الحكام شنق القتلة وقاطعي الطرق

ويا لها من نهاية مؤلمة لبطل شجاع وسلطان محبوب قد يكون ليس له ذنب فيما وصلت إليه أحوال المماليك من ضعف وفساد والله أعلم ، ويضيف ابن اياس فيقول : (– فلما شُنِق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف فإنه كان شابًا حسن الشكل سنه نحو أربع وأربعين سنة وكان شجاعًا بطلًا تصدي لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه ، وكان ملكًا حليمًا قليل الأذى كثير الخير وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يومًا ، وكان في هذه المدة في غاية التعب والنكد وقاسي شدائد ومحنًا وحروبًا وشرورًا وهجاجًا من البلدان وآخر الأمر شنق علي باب زويلة وأقام ثلاثة أيام وهو معلق علي الباب حتي جافت رائحته – – وفي اليوم الثالث أنزلوه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ومضت أخباره كأن لم يكن)[٤٣]

ويري الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني أن (التي تدلت من الحبل لم تكن جثة طومان باي ولكنها كانت في الحقيقة جثة مصر ، ولقد ماتت قرونًا طويلة قبل أن يكتب لها البعث من جديد وجاء السلطان العثمانلي ودخلت مصر في سرداب التاريخ وتحولت من سلطنة إلي ولاية وخيم عليها الظلام وأصابها الضمور وإذا كان السلطان العثمانلي قد قطع رأس سلطان المماليك فقد أبقي علي المماليك أنفسهم ، ولم يلبث هؤلاء أن تزيوا بزي العثمانلي ورطنوا بلسانه واشتغلوا تحت رايته)[٤٤]

وها قد وصلنا في الحديث إلي العصر العثماني

---

[٤٣] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي)صفحة ١١١

[٤٤] مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ٦٧

الفصل الثاني الحكم العثماني لمصر

ملخص العصر العثماني

يمكن تقسيم تاريخ الدولة العثمانية كمعظم الدول إلي عصرين رئيسيين ، عصر ازدهار وتقدم وحضارة وقوة وعصر اضمحلال وتخلف وجمود وضعف ، وقد بدأ هذا التحول تقريبًا بين العصر الأول والعصر الثاني بعد عهد السلطان سليمان القانوني[٤٥] أي بعد فترة قصيرة من ضم مصر للدولة العثمانية ، وقد (اتفق المؤرخون علي أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني عام ٩٧٤ هـ وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان) وكانت هزيمة العثمانيين في معركة ليبانتو عام ٩٧٩ هـ أزالت السيادة العثمانية عن البحر المتوسط ، وإذا تأملنا معًا العصر الأول والعصر الثاني وعلاقته بمصر سنجد أن مصر إلي حد كبير لم تنعم بعصر ازدهار العثمانيين بل كان انضمامها إليهم مع بداية عصر اضمحلالهم تقريبًا ، بعبارة أخري لم تذق مصر حلاوة العثمانيين ولكنها تجرعت مرارتهم

وهذا قد يفسر سر كراهية العديد من المصريين حاليًا لفترة الحكم العثماني لمصر ويحكم علي الدولة العثمانية بالكامل من خلال عصرها الثاني فقط ، فلم تكن مصر تحت الحكم العثماني أيام السلاطين الأوائل العثمانيين من أمثال عثمان الأول مؤسس الدولة وأورخان ومراد الأول وبايزيد الأول ومحمد جلبي ومراد الثاني ومحمد الفاتح فقد كان هؤلاء السلاطين معاصرين لفترة تواجد الخلافة العباسية في مصر في ظل السلطنة المملوكية القوية المزدهرة في ذلك الوقت بمعني أن سلاطين بني عثمان وسلاطين المماليك كانوا يجاهدون في سبيل الله ولكن مع اختلاف أماكن القتال فقد كان العثمانيون يجاهدون في الغرب الأوروبي بينما كان المماليك يواجهون الخطر المغولي والصليبي في الشرق وكانت بين الدولتين علاقات تعاون وصداقة ، وكانوا يتبادلون الرسائل كلما حدثت أمور مهمة

وقد ذكرنا الرسالة التي أرسلها السلطان محمد الفاتح إلي الخليفة العباسي والسلطان المملوكي وأهل مصر بشكل عام والتي أخبرهم فيها بفتح القسطنطينية ، بل إن قبل ذلك بفترة وتحديدًا في عصر السلطان المملوكي الظاهر برقوق أرسل السلطان العثماني بايزيد الأول رسالة إلي الخليفة العباسي في القاهرة يطلب منه فيها أن يمنحه لقب سلطان الروم نظرًا لأنه فتح الكثير من البلاد الرومية وسيطر عليها ، أي أنه كان يريد شرعية الحكم من الخليفة العباسي

---

[٤٥] (من كتاب الدولة العثمانية – عوامل النهوض وأسباب السقوط) (د علي الصلابي) صفحة ٦٣٥

وإليك بعض ما قرأت عن هذا الموضوع ، (واتخذ بايزيد لقب سلطان الروم كدليل علي وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته علي كل شبه جزيرة الأناضول ، كما أرسل إلي الخليفة العباسي المقيم بالقاهرة يطلب منه أن يقر هذا اللقب حتي يتسنى له بذلك أن يسبغ علي السلطة التي مارسها هو وأجداده من قبل طابعًا شرعيًا رسميًا فتزداد هيبته في العالم الإسلامي)[٤٦] وقد تعاونت الدولتان المملوكية والعثمانية تعاون عسكري فيما بينهما فمن الثابت تاريخيًا أن الدولة العثمانية أرسلت إمدادات ومعونات عسكرية للدولة المملوكية في مواجهة الخطر الصليبي فقد طلب السلطان الغوري المعونة من السلطان بايزيد الثاني ليتمكن من قتال الأسطول البرتغالي (وأرسل في شهر شوال سنة ٩١٦ هـ / ١٥١١ م عدة سفن محملة بالمكاحل والأسهم وأربعين قنطرًا من البارود وغير ذلك من المستلزمات العسكرية والأموال اللازمة ولكن هذه المساعدة لم يكتب لها الوصول سالمة بسبب تعرضها لقرصنة فرسان القديس يوحنا)[٤٧]

وجدير بالذكر أنه مما شجع سليم الأول علي قتال المماليك ، تفشي ظلم الدولة المملوكية بين الناس ورغبة أهل الشام وعلماء مصر في التخلص من الدولة المملوكية والانضمام إلي الدولة العثمانية فقد اجتمع العلماء والقضاة والأعيان والأشراف وأهل الرأي من الشعب وتباحثوا في حالهم ثم قرروا أن يتولى قضاة المذاهب الأربعة والأشراف كتابة عريضة نيابة عن الجميع يخاطبون فيها السلطان العثماني سليم الأول ويقولون أن الشعب السوري ضاق بالظلم المملوكي وإن حكام المماليك يخالفون الشرع الشريف وإن السلطان إذا قرر الزحف علي السلطنة المملوكية فإن الشعب سيرحب به ، ولقد تلقي المماليك الهزيمة – – وهم في شيخوخة دولتهم ومن آخر صفحة من صفحات تاريخهم كقوة إسلامية كبري سواء في الشرق الأوسط أو في العالم فقد كانوا قد فقدوا حيويتهم وقدرتهم علي تجديد شبابهم فكان أن زالت دولتهم وذهبت البلاد التي كانت تحت حكمهم للنفوذ العثماني وهكذا أمسك العثمانيون بعجلة القيادة في العالم الإسلامي بعد أن تم انتزاعها من أيدي المماليك

وكما قلنا من قبل أنه عندما عجزت الدولة المملوكية عن القيام بمسئولياتها تجاه الإسلام ومواجهة أعداء الأمة نتيجة للفساد الذي انتشر بها قرر العثمانيون ضم مصر وتوحيد الجبهة الإسلامية ، وهكذا بدأ الحكم العثماني لمصر في مرحلة حرجة ومفترق طرق حيث أنه لم يمض وقتًا طويلًا بعد ضم مصر حتي بدأت الدولة العثمانية نفسها تدخل في عصر اضمحلال ولذلك نجد أن مصر لم تشاهد من العثمانيين إلا فترات جمود وضعف بعد ذلك وتم إهمال شئونها الداخلية وتحكم فيها المماليك مرة أخري كما سنري ، وعندما

---

[٤٦] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٨٩

[٤٧] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٢٣٩

تولي السلطان سليم الأول العرش العثماني سنة ٩١٨ هـ قام بتغيير السياسة العثمانية بشكل ملحوظ (فقد توقف في عهده الزحف العثماني نحو الغرب الأوروبي أو كاد أن يتوقف واتجهت الدولة العثمانية اتجاها شرقيًا نحو المشرق الإسلامي)[٤٨] ويؤكد الدكتور علي الصلابي أن تحرك الدولة العثمانية نحو المشرق كان (من أجل إنقاذ العالم الإسلامي بصورة عامة والمقدسات الإسلامية بصورة خاصة من التحرك الصليبي الجديد من الأسبان في البحر المتوسط والبرتغاليين في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر الذين أخذوا يطوقون العالم الإسلامي ويفرضون حصارًا اقتصاديًا حتي يسهل عليهم ابتلاعه)[٤٩]

وبالطبع قد لاحظنا فعلًا مما سبق أن الدولة المملوكية أصبحت تعاني في آخر أيامها من أزمات اقتصادية حادة بسبب هذا الحصار الاقتصادي فضلًا عن تفشي الفساد بها

ومن أسباب توجه العثمانيون أيضًا نحو المشرق الإسلامي تزايد قوة الشيعة في إيران " الدولة الصفوية " مما أنذر ببسط النفوذ الشيعي علي العالم الإسلامي السني وهذا ما دفع العثمانيون (إلي الخروج إلي المشرق العربي لحماية آسيا الصغري بصفة خاصة والعالم السني بصفة عامة)[٥٠] وقد وجد سليم الأول تهاونًا كبيرًا من الدولة المملوكية في مكافحة الشيعة في إيران بل إن هناك معلومات خطيرة وصلت إليه تؤكد أن هناك علاقات ورسائل متبادلة بين المماليك والدولة الصفوية الشيعية في إيران[٥١] ، وذلك في آخر أيام المماليك بالطبع ، ومن هنا قرر سليم الأول ضم الدولة المملوكية التي ناصبته العداء ليضمن حماية ظهره قبل أن يتفرغ تمامًا لقتال الدولة الصفوية

وبعد أن ضم السلطان سليم الأول مصر إلي دولته قام بتعيين نائب له في مصر من العثمانيين وهو الوزير يونس باشا ، ثم استبدله قبل رحيله من مصر بخاير بك ليصبح خاير بك والي علي مصر ونائب السلطان سليم الأول ويقول ابن اياس : ومن العجائب أن مصر صارت نيابة بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة لأنه خادم الحرمين الشريفين ، وحاوي ملك مصر الذي افتخر به فرعون اللعين (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون) ، وقد تباهي بملك مصر علي سائر ممالك الدنيا ، وأشيع أن ابن عثمان خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة ما بين ذهب وفضة ، هذا خارجا عما غنمه من التحف والسلاح ، ثم إن خاير بك أعطي الأمان للمماليك الجراكسة ، ونادي بأن

---

[٤٨] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٢١٧
[٤٩] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٢١٨
[٥٠] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٢١٨
[٥١] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٢٢٥

يظهروا وعليهم أمان الله تعالي ، فظهر منهم الجم الكثير كما يقول ابن اياس وهم في أسوأ حال في زي الفلاحين ، وعليهم زنوط قرع وقمصان بأكمام كبار ، فإذا رآهم أحد لم يفرق بينهم وبين الفلاحين

ثم طلع ملك الأمراء خاير بك نائب السلطنة بالديار المصرية إلي قلعة الجبل ، فكان له موكب حافل ، وأمامه جماعة كثيرة من العثمانية مشاه يرمون بالنفط ، وعدد ضخم من العسكر العثماني ، فأقام بالقلعة مقر الحكم في مصر ، ليتولي شئون البلاد كما كان يتولاها من سبقه من حكام مصر من قلعة الجبل ، وأرسل في طلب النجارين والبنائين لإصلاح ما فسد بالقلعة بسبب القتال والحروب ، ثم قام بتعيين خاصة رجاله المقربين في الوظائف العامة ليحكم سيطرته علي الأمور

وقد ذكر ابن اياس أن خاير بك نزل في أحد الأيام من القلعة وتوجه إلي باب الشعرية ، وزار الشيخ عبد القادر الدشطوطي ، وجلس عنده ساعة ، فقيل أن الشيخ عبد القادر قال له : استوص بالرعية ، فإنك تُسأل عن ذلك يوم القيامة ، فبكي خاير بك ، وقبّل يده وخرج من عنده ، وعاد إلي القلعة من يومه

وبالرغم من أن خاير بك ظل يحكم مصر حتي وفاته سنة ١٥٢٢ م إلا أنه علي ما يبدو لم يشعر بنعمة الحكم ، لعدة أسباب منها عدم احترام العثمانيون له وثوراتهم عليه وإفسادهم عليه كل احتفال أو مناسبة وقد احتاج إلي وقت طويل لاستعادة ثقة المماليك الجراكسة فيه ، حيث كانوا يخافونه ويترددون عندما يدعوهم لأي وليمة أو احتفال ، وغالباً والله أعلم لم يكن محبوبًا من الرعية إلي حد ما

أما عن عدد الولاة علي مصر خلال العصر العثماني فقد (تتابع علي مصر في هذه الفترة "١٣٦" من الولاة عاصروا "٢١" من السلاطين العثمانيين)٥٢ وأول هؤلاء الولاة المذكورين في موسوعة حكام مصر هو خاير بك الذي كان نائبًا للسلطان الغوري في حلب وكان قائد ميسرة جيشه في معركة مرج دابق الشهيرة ، وأصبح يلقب بلقب خاير٥٣ باشا بدلًا من خاير بك لأن والي مصر كان يلقب بالباشا تمييزًا له عن باقي البكوات من المماليك حيث تحول المماليك من سلاطين إلي بكوات ، وكانت مدة ولاية خاير باشا خمس سنوات وثلاثة شهور (وخلال فترة ولايته علي مصر توفي السلطان سليم في ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م وتولي السلطنة من بعده السلطان سليمان القانوني الذي أبقي علي خاير باشا واليًا علي مصر)٥٤

---

٥٢ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ١٠٤

٥٣ قام سليم الأول في ذلك الوقت بإطلاق لقب خاين بك علي خاير بك لأنه خان السلطان الغوري

٥٤ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ١٠٥

إجراءات سليم الأول في مصر

أقام سليم الأول في مصر ثمانية أشهر إلا أيامًا قلائل[٥٥] ومن المؤكد أنه لاحظ مدي ما وصلت إليه مصر من تقدم وتطور في جميع المجالات مما يؤهلها إلي أن تصبح قوة عظمي لولا الفساد الذي انتشر بين حكامها ، ويبدو أن سليم الأول نظر إلي مصر النظرة وعرف قدراتها وعرف ما الذي يمكن أن تقدمه لمن يحكمها من إمكانيات جبارة ، ولذلك قرر بعض الإجراءات تجاهها وأهمها توزيع السلطة بين عدة جهات بحيث لا يسيطر شخص واحد علي السلطة كلها في يده ، ومع فارق التشبيه تُذكّرنا هذه الإجراءات إلي حد كبير مع إجراءات الإسكندر المقدوني عندما قام بتوزيع السلطات في مصر كما تذكرنا أيضًا بموقف الإمبراطور أغسطس من مصر وخوفه الشديد من تحقيق الاستقلال إذا استقر بها حاكم قوي طموح

وقد وضع سليم الأول قاعدة لنظام الحكم في مصر (وهي إيجاد سلطتين تتنازعان الحكم وتراقب كلتاهما الأخرى ، الأولي سلطة نائب السلطان " الوالي " والثانية سلطة رؤساء الجند ووضع أيضًا نواة السلطة الثالثة وهي سلطة البكوات المماليك الذي رجع إليهم حكم مديريات القطر المصري)[٥٦]

المماليك من سلاطين إلي بكوات

وهذا النظام في الحكم لم يستمر كما وضعت قواعده ولم يكن للديوان الكبير ولا للديوان الصغير عمل منظم في إدارة الحكومة بل تركت البلاد تتقسمها رؤساء الجند والولاة وانتهز المماليك فرصة استمرار التنازع والحروب بين الفريقين فأخذوا يعملون علي الانفراد بالحكومة فنظام الحكم السياسي في مصر قد تطور مع الزمن وانتهي التنافس بين السلطات الثلاث إلي تغلب البكوات المماليك ، فاستأثر المماليك بالنفوذ والحكم وساعدهم علي ذلك ما صارت إليه السلطنة العثمانية من الضعف بسبب حروبها المتواصلة واختلال شئونها الداخلية وفساد نظام الحكم فيها وزاد في نفوذهم كثرة تغيير الولاة العثمانيين وعزلهم

ويقول المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي عن ذلك : (ولم يكن للديوان الكبير ولا للديوان الصغير عمل منظم في إدارة الحكومة بل تركت البلاد تتقسمها رؤساء الجند والولاة وانتهز المماليك فرصة استمرار التنازع والحروب بين الفريقين فأخذوا يعملون علي الانفراد بالحكومة فنظام الحكم السياسي في مصر قد تطور مع الزمن وانتهي التنافس بين السلطات الثلاث إلي تغلب البكوات المماليك ، وقد حدث هذا التطور في النصف الثاني من القرن السابع عشر فاستأثر المماليك بالنفوذ والحكم وساعدهم علي ذلك ما صارت

---

[٥٥] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١ صفحة ٢٨
[٥٦] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١ صفحة ٢٩

إليه السلطنة العثمانية من الضعف في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر بسبب حروبها المتواصلة واختلال شئونها الداخلية وفساد نظام الحكم فيها وزاد في نفوذهم كثرة تغيير الولاة العثمانيين وعزلهم)٥٧ ، وهكذا عاد نفوذ المماليك مرة أخري في مصر ولكن ليس في صورة سلاطين ولكن في صورة بكوات ، وجدير بالذكر أن من أشهر هؤلاء البكوات المماليك علي بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب وإبراهيم ومراد بك ومحمد بك الألفي ، حيث وصل نفوذ المماليك إلي درجة من القوة لم تكن موجودة مع بداية ضم مصر للدولة العثمانية (قال الرحالة فانسليب يصف ما شاهده في مصر سنة ١٦٧٢ م من استئثار المماليك بالحكم : " إن كلمة البكوات في الديوان كانت نافذة بحيث لم يكن الباشا " الوالي العثماني " يخالف لهم أمرًا وكانوا يملكون عزله)٥٨

ونقل سليم الأول كل ما له قيمة في مصر من أموال وكنوز وأسلحة ، وخاصة ما كان بالقلعة من خزائن المال والكتب إلي اسطنبول٥٩ (وحمله إلي اسطنبول بالطريق البري علي آلاف الجمال وفي أعداد لا تحصي من المراكب)٦٠ ويقول د عبد المنعم ماجد عن سليم الأول (وفي سبيل القضاء علي مقومات مصر الحضارية سعي سليم إلي أن يفرغها من كل نابه فيها ، فسحب منها رجالها الحاذقين في المهن والحياة الحضارية ليحملهم معه إلي اسطنبول ، فيذكر المؤرخ ابن إياس أسماء الذي تقرر سفرهم من مصر إلي اسطنبول حيث خصص فصلًا في كتابه لمن توجه منهم إلي القسطنطينية علي حد قوله وهم من جميع نواحي مصر من المسلمين والقبط واليهود علي السواء منهم أصحاب الحرف والصناعات كالمهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والسباكين والفعلة حيث أخذ سليم من هؤلاء جماعة كبيرة جدًا لا يمكن حصر أعدادهم كذلك أخذ سليم الحذاق من صناع الزردخانة أي السلاح والذين يشتغلون بصناعة النسيج – – كما أخذ جماعة من التجار)٦١ ومن هنا قد يعتقد البعض أن إجراءات سليم الأول التي اتخذها نحو مصر كان الغرض منها إفقادها أسباب القوة والحضارة حتي لا تقوم لها قائمة بعد ذلك قد تشكل خطرًا علي دولته ، أو قد يكون السبب هو محاولة نقل الحضارة المصرية إلي اسطنبول والله أعلم

والمشهور تاريخيًا أن عدد المدارس والاهتمام بالعلم والتعليم في مصر قد انخفض بشدة خلال العصر العثماني بعد أن كان مزدهرًا في العصر المملوكي ، وأصبح الجامع الأزهر هو المصد الوحيد للعلم في مصر

---

٥٧ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١ صفحة ٣٥
٥٨ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١ صفحة ٣٥ ، ٣٦
٥٩ طومان باي (د عبد المنعم ماجد) صفحة ١٨٩
٦٠ طومان باي (د عبد المنعم ماجد) صفحة ١٨٩
٦١ طومان باي (د عبد المنعم ماجد) صفحة ١٩٢

تقريبًا والله أعلم ، وكانت اللغة التركية في العصر العثماني هي السائدة وانتشرت المصطلحات التركية في مصر والأمة الإسلامية بشكل كبير مما أدي إلي تهديد اللغة العربية في الصميم ولكن وبحمد الله وفضله سبحانه وتعالي كان هناك من جعلهم الله أسبابًا لحفظ اللغة العربية اللغة التي نزل بها القرآن الكريم والذي تعهد سبحانه وتعالي بحفظه ، وكان من بين الأسباب التي جعلها الله لحفظ هذه اللغة في ذلك الوقت والله أعلم الجامع الأزهر الشريف وإليك بعض ما قرأت عن هذا الجامع العريق : (لكن الأزهر استطاع في العصر العثماني أن يحتفظ بمكانته العلمية السامية وأن يقوم بأعظم دور في نشر الثقافة العربية الإسلامية وغدا الأزهر أيام العثمانيين ملاذًا لعلوم الدين واللغة ومعقلًا حصينًا للغة العربية في وسط المحيط التركي بل إنه مكن أبناء العروبة من مغالبة لغة الأتراك ومقاومتها وردها عن التغلغل في المجتمعات العربية – – وتمتع الأزهر في العصر العثماني بمركز انفرادي أكد قيادته وزعامته للحياة العقلية في مصر وفي العالم الإسلامي)٦٢ وهكذا أصبح يقال منذ ذلك الوقت (ويتردد علي الألسنة أن للمسلمين قبلتين قبلة دينية هي الكعبة الشريفة في مكة المكرمة وقبلة علمية هي الأزهر الشريف في القاهرة)٦٣

وإذا تأملنا ما يحدث اليوم في العالم في مجال الإعلام المسموع والمرئي سنجد العديد من القنوات التليفزيونية الناطقة باللغة العربية الفصحى والتي تبثها دول ذات وزن كبير في العالم فكلهم حريصون علي مخاطبة العرب ربما لأن العرب أهم مما يظنون بأنفسهم والطريف أن الطريقة الوحيدة كي يفهمك العرب جميعًا بمختلف لهجاتهم أن تخاطبهم جميعًا باللغة العربية الفصحى التي أهمل في حقها العرب أنفسهم ولكن تم حفظها علي يد غير العرب والله أعلم ، بل المدهش أن هؤلاء يخاطبون أطفال العرب أيضًا بقنوات أطفال ناطقة باللغة العربية الفصحى مما يقوي هذه اللغة عند الأطفال وسبحان الله

الجمع بين الخلافة والسلطنة

كما انتقلت الخلافة من العباسيين إلي العثمانيين ليتم الجمع بين السلطنة والخلافة ، بالرغم من أن الخلافة كانت في هذه الفترة مجرد رمز لتوحيد الأمة ولم يكن للخليفة العباسي نفوذ مؤثر علي السلطنة ، بل قد يكون تحول الخلافة إلي مجرد رمز ، قد حماها من الإلغاء لفترة طويلة فقد تعاقبت الدول التي سيطرت علي الأمة الإسلامية دون أن تتأثر الخلافة العباسية بها فسيطرت علي الأمة لحين من الدهر الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية ثم الأيوبية ثم المماليك بل قامت أيضًا الدولة العثمانية وازدهرت في عصر

---

٦٢ تاريخ المدارس في مصر الإسلامية (د عبد العظيم رمضان) صفحة ٦٦ [الجامع الأزهر ودوره في نشر الثقافة العربية الإسلامية – الأستاذة الدكتورة سيده إسماعيل كاشف]

٦٣ تاريخ المدارس في مصر الإسلامية (د عبد العظيم رمضان) صفحة ٦٦ [الجامع الأزهر ودوره في نشر الثقافة العربية الإسلامية – الأستاذة الدكتورة سيده إسماعيل كاشف] صفحة ٦٦

الخلافة العباسية ولم تتأثر الخلافة العربية القريشية بكل هذا التقلب بين الدول إلي أن تم ضم مصر إلي الدولة العثمانية فتحولت الخلافة إليها ، ومن يدري فربما كانت الخلافة العباسية موجودة إلي الآن مستضافة في إحدي الدول الإسلامية في حالة ما إذا اكتفي العثمانيون بالسلطنة فقط دون الخلافة كما فعل من قبلهم من سلاطين غير عرب ، ولكننا فقدنا –إلي الآن– مجرد هذا الرمز بعد إلغاء الخلافة تمامًا عند قيام الدولة العلمانية في تركيا ، فلم يتم انتقال الخلافة إلي مكان آخر كما كان متبعًا مع الخلافة العباسية التي لم تكن تتأثر بتحول مقاليد السلطة من دولة إلي أخري والله أعلم ، وإذا تذكرنا معًا أحداث سقيفة بني ساعدة والتي أقر فيها الأنصار أن الخلافة لابد أن تكون في قريش التي اصطفاها المولي عز وجل ليبعث منها خاتم المرسلين صلي الله عليه وسلم وأصبح بعد ذلك خليفة رسول الله من قريش علي مر العصور المختلفة حتي انتقلت لأول مرة إلي عنصر غير عربي قريشي مع ضم مصر إلي الدولة العثمانية وسبحان الذي أحاط بكل شئ علمًا (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) ، وهكذا فقد العرب آخر ما تبقي لهم من دولتهم التي أسسوها لتكون دولة إسلامية وليست دولة عربية ، فقد كانت الرابطة الإسلامية هي أساس قيام الدولة فهي لا تعتمد علي جنس أو قومية معينة فالعرب لم يؤسسوا دولة عربية ، وإليك فقرة من كتاب ممتع قام بتأليفه عالم مسلم من الهند اسمه أبو الحسن الندوي وهذا الكتاب اسمه ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين ، يقول في أحد فقراته عن المسلمين ما يلي: (– – أنهم لم يكونوا خدمة جنس ورسل شعب أو وطن يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده ويؤمنون بفضله وشرفه علي جميع الشعوب والأوطان ، لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاماً ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم ، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلي حكم العرب وإلي حكمهم أنفسهم ، إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلي عبادة الله وحده كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد : "الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلي عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلي سعتها ومن جور الأديان إلي عدل الإسلام " فالأمم عندهم سواء ، الناس كلهم من آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي علي عجمي ولا لعجمي علي عربي إلا بالتقوي "" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ""١٣الحجرات ، وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص –وقد ضرب ابنه مصرياً وافتخر بآبائه – قائلاً : خذها من ابن الأكرمين فاقتص منه عمر– : متي استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ،، فلم يبخل

هؤلاء علي ما عندهم من دين وعلم وتهذيب علي أحد ، ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسباً ولوناً ووطناً بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد ، وغوادي مزنة أثني عليها السهل والوعر وانتفعت بها البلاد والعباد علي قدر قبولها وصلاحها ،،، في ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب –حتي المضطهدة منها في القديم– أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة ، أن تساهم العرب في بناء العالم الجديد ، بل إن كثيراً من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين حتي قال ابن خلدون : "من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي " ونبغ من هذه الأمم في عصور الإسلام قادة وملوك ووزراء وفضلاء هم نجوم الأرض ونجباء الإنسانية وحسنات العالم فضيلة ومروءة وعبقرية ودِيناً وعملاً لا يحصيهم إلا الله –)٦٤

ومما سبق يمكن القول أن العنصر العربي لم يكن يتصدر المشهد في أي مجال لكونه عربي بل إن الأفضل من أي جنسية هو الذي يتصدر المشهد في ظل الإسلام ، وبالتالي أصبح هناك قادة جيوش غير عرب ووزراء غير عرب وعلماء غير عرب بل وسلاطين غير عرب ، واحتفظ العرب بالخلافة فقط ، بل واستقرت في قريش وهي الأحق بها في رأي الكثير ممن حكموا الأمة الإسلامية فلم ينازعهم فيها أحد ، إلي أن تم جمع السلطان العثماني السلطنة والخلافة ، وأصبحت اللغة التركية هي اللغة الرسمية

ونعود للحديث عن مصر بعد أن أصبحت ولاية تابعة للسلطان العثماني ، ويحكمها باشا معين من الدولة ، ويمكننا استعراض نماذج من بعض الولاة وأهم الأحداث في العصر العثماني في مصر

الوالي العثماني سنان باشا

وردت معلومات عن سنان باشا كأحد أهم ولاة مصر في العصر العثماني في موسوعة تاريخ مصر لأحمد حسين بالجزء الثالث ، حيث تولي هذا الوالي العثماني حكم مصر في سنة ١٥٦٨م – ٩٧٥هـ في عهد السلطان العثماني سليم خان الثاني ، ثم شغل بعد ذلك وظيفة الصدر الأعظم ، والصدر الأعظم هو الرجل الثاني بالدولة العثمانية ، وأثناء تولي سنان باشا حكم مصر قامت الدولة العثمانية بتكليفه بقيادة حملة لليمن واستخلف علي مصر اسكندر الشركسي ، وقد نجح سنان باشا في مهمته في اليمن واستطاع أن يدخل صنعاء لأول مرة ، وأن يفتح جميع القلاع المستعصية ، وقد ظل في اليمن ينظم شئونه ويقر الأمن

[٦٤] نقلاً عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين تأليف العلامة أبو الحسن الندوي صفحة ١٠٦،١٠٧

في نصابه لمدة عامين وبضعة شهور ، وأعيد سنان باشا إلي ولاية مصر بعد نجاحه في اليمن في أول صفر من سنة ٩٧٩هـ فخط في تاريخ الولاة العثمانيين في مصر أزهر صفحة إذ أعاد ترعة الإسكندرية التي كانت قد ردمت فحرمت الإسكندرية معين الحياة ، وبني وعمر وأنشأ جوامع وشوارع وحمامات ، واختص بولاق باهتمامه فشق فيها شارعًا وأنشأ وكالات للتجار ، وشيد جامعه الشهير الذي لا يزال قائمًا ومعروفًا باسمه ، وهو من خير ما أنتج العهد العثماني ويعتبر هذا المسجد من التحف المعمارية القليلة من العصر العثماني

وقد وردت أبعاد هذا الجامع بموسوعة ويكيبديا كالآتي : يبلغ طول الجامع ٣٥ متر وعرضه ٢٧متر وقوام المسجد قبة مركزية كبيرة محاطة بثلاث أيوانات من الجهات الشمالية والجنوبية والغربية والجامع ليس له حرم بمعنى أنه لا يتقدمه أي فناء مكشوف والسبب في ذلك صغر المساحة حيث كان الجامع يطل مباشرة على ثغر النيل وقد أستعاض مهندس الأثر عن الفناء بالأروقة وقد كان الجامع محاط من خارجه بأسوار كانت تحوي أبواب ، ويصف أمين باشا سامي عهد سنان باشا بقوله إن الرخاء شمل مصر في أيامه حتي وصل سعر الإردب القمح عشرة أنصاف ، وأعاد توزيع المستحقات للعلماء والفقراء والمرضي

ويمكننا من خلال ما كتبه المؤرخ البريطاني ستانلي لين بول أن نستعرض أبرز أمراء المماليك في العصر العثماني

نماذج لبعض أمراء مماليك العصر العثماني

ذكرنا أن المماليك في العصر العثماني تحولوا إلي أمراء وبكوات وكانوا قبل ذلك سلاطين وملوك في أيام المماليك البحرية والمماليك البرجية ، حتي خضعت مصر للحكم العثماني وأصبحت ولاية تابعة بعد أن كانت مملكة مستقلة ، وبالرغم من ذلك قام مماليك العصر العثماني بمحاكاة سابقيهم من سلاطين المماليك لينالوا المجد والشرف ولكن كان هناك فرق كبير وعن هذا الموضوع كتب المؤرخ والباحث البريطاني ستانلي لين بول ما يلي : (– – والواقع أنه يصعب علينا كشف أي فارق جوهري بين هؤلاء الأمراء المتأخرين ، وبين أولئك الذين ظهروا خلال العصر الذهبي لحضارة المماليك ، حقيقةً أن فرصهم المواتية كانت أقل ، لأنهم لم يقووا علي القتال في سوريا أو آسيا الصغري لمصلحتهم الخاصة ، وذلك لأن الخطط التي كانت ترسم في مصر علي الدوام للاستغلال الأجنبي ، كانت تستخدم كجانب ضئيل للجيوش العثمانية ، إلا أن من الواضح أن شخصياتهم وأعمالهم وميولهم كانت تشبه إلي أبعد الحدود ما كانوا عليه في القرنين السابقين لهم ، فقد كان الفرق إذن في الحكم لا في النوع ، ذلك أنهم لم يكونوا أناسًا ذوي فرص

عظيمة مثلما كان أسلافهم ، وإنما كانوا يشبهونهم في الجنس والخلق والعمل إلي حد بعيد ، والحقيقة أن بعضهم كان ذا شخصية قوية يمكن مقارنتها بشخصيات المدرسة القديمة ، فعثمان بك ذو الفقار – علي سبيل المثال – في النصف الأول من القرن الثامن عشر – – في عام ١٧٣٩م أصبح أميرًا للحج وهو من أشهر المناصب في مصر ، – – وكان عثمان بك هو أول أمير يجرؤ علي دعوة باشا مصر "العثماني" لوليمة في قصره ، وقد كان خضع بسيطرته بقية نبلاء مصر خضوعًا تامًا ، كما أنه كان يعقد مجلسًا في قصره الخاص ليبحث أسباب الشكوي ، وكان يعاقب في صرامة وشدة كل حالات الاغتصاب والظلم ، لأنه هو نفسه كان نقيًا نزيهًا ، كذلك كان يراقب مفتش الأسواق عن كثب ، ويحدد أسعارًا ثابتة للخبز وغيره من ضروريات الحياة ، ويتأكد من أن أموال البر تنفق في الأوجه الصحيحة ، ولقد كان ساميًا في خلقه ، ذا أفكار وآراء نبيلة ، عادلًا ، قويًا ، نزيهًا ، ذا حياة شريفة ، أبيًا كريمًا ، بحيث أنه خلف من ورائه أثرًا ، حينما تسببت مؤامرات خصومه في نفيه من مصر ، كان من نتيجته أن كان ينسب إليه عصر من العصور ، فقد كان القوم يقولون مثلًا : إن ذلك الشئ حدث بعد رحيل عثمان بك ببضعة سنوات ، أو لقد كان عمري كذا من السنين حينما رحل عثمان بك

ولقد كان رضوان بك الجلفي ، علمًا بارزًا آخرًا من أعلام القرن الثامن عشر ، فحينما كان يتولي السلطة هو ونائب آخر يدعي إبراهيم ، كانت البلاد تتمتع بسلام شامل ، وكان الطعام أرخص منه في أي وقت قبل ذلك ، وعلي الجملة فإن جميع الطبقات كانت تعيش في يسر ورخاء ، وكان كل رجل عظيم في تلك الأيام يفتح منزله مرتين كل يوم في الظهر والمساء لكل قاص ودان ، وذلك في بهو عظيم الاتساع ، وكان السيد وضيوفه يتصدرون المائدة ، ثم يليهم المماليك والأتباع ، وكان من العار الا يسمح لأي غريب بالدخول ما دام قد قدم بنفسه إلي هناك ، أما أيام الأعياد فكانت توزع أطباق كبيرة من الأرز وعسل النحل أو اللبن علي الفقراء ، كذلك كانت توزع الحلوي في أيام الجمع والاحتفالات الرسمية ، وكان أحد منازل رضوان الأنيقة يقع علي بركة الأزبكية التي كانت موجودة في ذلك الوقت ، وكانت تعلو ردهاته قباب بديعة الزينة ، فيها نقوش عربية من الذهب علي أرضية لونها أزرق ومرصعة بالزجاج باللون المتناسق الذي يكسبها روعة فوق الروعة ، كذلك فإنه بني أكشاكًا في حديقة بجوار قناة حيث كان قد حفر بركة وأقام جندلًا ، وهناك وحينما خمدت أطماعه وآماله كان ينغمس في الملذات التي كان يسر منها كثيرًا ، والحقيقة أن رضوان لم يكن يهتم بالأخلاق مثلما كان يهتم عثمان بك)٦٥

---

[٦٥] نقلًا باختصار عن كتاب سيرة القاهرة للمؤرخ البريطاني ستانلي لين بول صفحة ٢٣٧ ، ٢٣٨

حركة علي بك الكبير

من أبرز الأحداث في العصر العثماني في مصر ما حدث في عهد الأمير المملوكي علي بك الكبير فأثناء قيام الدولة العثمانية بقتال روسيا والنمسا خلال القرن الثامن عشر كان شيخ البلد[٦٦] في مصر علي بك الكبير الذي انتهز فرصة حروب العثمانيين الكثيرة وانشغالهم بها وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وإليك بعض ما كتبه الرافعى عن هذا الموضوع :

(فلما نشبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٧٦٨ جاهر بخلع يده من طاعة الدولة وأعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩م "١١٨٣هـ" وعزل الوالي التركي ومنع ورود الولاة العثمانيين وضرب النقود باسمه ودانت له مصر بحريها وقبليها وكان من مماليكه وأتباعه أحمد " باشا " الجزار ومحمد بك أبو الذهب وإسماعيل بك وحسن بك الجداوي وإبراهيم بك ومراد بك وغيرهم مما كانت لهم الأدوار الكبيرة علي مسرح الحوادث)٦٧ ، (وكان علي بك طموح النفس واسع المطامع فجرد الجيوش وفتح معظم جزيرة العرب ونادي به شريف مكة " سلطان مصر وخاقان البحرين " وأوفد محمد بك أبا الذهب ليفتح باسمه سوريا ففتح معظمها ولكنه لم يكد يتم له فتح دمشق حتي انقلب علي علي بك الكبير واتفق مع الباب العالي وعاد إلي مصر ليستأثر بالحكم فيها وقامت الحرب بينه وبين سيده وانتهت بقتل علي بك سنة ١٧٧٣ وعادت مصر ولاية عثمانية وخلصت إمارتها لمحمد بك أبو الذهب واستقر شيخًا للبلد وكافأته تركيا بفرمان تثبيته في مشيخة البلد وتوليته حكم مصر وصار له الأمر والنهي في البلاد ورجعت تركيا إلي إرسال الولاة كما كان الأمر قديمًا غير أن الوالي كان محجورًا عليه مسلوبًا حوله وقوته ومحمد بك أبو الذهب يختار الوالي الذي يرتضيه والأمراء وقواد الجند وأعيان الدولة وكافة مماليكه وأتباعه إلي أن مات سنة ١٧٧٥ م "١١٨٩هـ " فخلفه في مشيخة البلد إبراهيم بك وقاسمه السلطة مراد بك)٦٨ ومحمد بك أبو الذهب يوجد باسمه حاليًا مسجد بجوار الجامع الأزهر وقد وصف الجبرتي محمد بك أبو الذهب عندما كتب عن حوادث سنة ١١٨٨ هـ "١٧٧٤م" فقال :

(استهلت ووالي مصر خليل باشا محجور عليه ليس له في الولاية إلا الاسم والعلامة علي الأوراق والتصرف الكلي للأمير الكبير محمد بك أبو الذهب والأمراء وأعيان الدولة مماليكه وإشراقاته والوقت في

---

[٦٦] كان لقب شيخ البلد هو لقب كبير البكوات المماليك في مصر
[٦٧] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعى) ج١ صفحة ٣٧
[٦٨] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعى) ج١

هدوء وسكون وأمن والأحكام في الجملة مرضية والأسعار رخية وفي الناس بقية وستائر الحياء عليهم مرخية شعر :

وما الدهر في حال السكون بساكن – – – ولكنه مستجمع لوثوب)٦٩

أما عن أحوال المصريين في ذلك الوقت ، فقد كتب الرافعى وهو يصف أحوال المصريين قبل دخول نابليون ما يلي (كان المسلمون والأقباط يشتركون علي السواء في احتمال ظلم الحكام وسوء الإدارة وشارك الأقباط إخوانهم المسلمين في الزراعة والصناعة والتجارة وتخصص الأقباط في الأعمال الحسابية والمالية فعهد إليهم البكوات المماليك والكشاف بتحصيل الضرائب وتقديرها)٧٠ كما وصف الرافعى القاهرة في ذلك الوقت بقوله (كانت القاهرة ولم تزل أكبر مدن القطر المصري وعاصمته ومقر حكومته وكانت حدود العمران فيها تنتهي شمالًا من الحسينية إلي باب الحديد وجنوبًا من القلعة إلي باب عرب اليسار إلي باب السيدة عائشة إلي جامع السيدة نفيسة فباب طولون فباب البغالة فباب السيدة زينب ، وشرقًا من القلعة فباب الوزير فباب الغريب فالحسينية ، وغربًا من باب الحديد إلي الأزبكية فباب اللوق فباب الشيخ ريحان فباب الناصرية فباب السيدة زينب ، وكان موقع المدينة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل وبينها وبينه مزارع وإذا أردت أن تعرف الفرق بين عمرانها في ذلك العصر وحدوده في العصر الحاضر فحسبك ملاحظة بعض المعالم المعروفة في العصرين فجامع الظاهر مثلًا وهو الكائن الآن بميدان الظاهر كان خارج باب الحسينية وخارج مباني القاهرة وكان باب الحديد نهاية حدود مباني القاهرة من الشمال الغربي والأزبكية والمباني التي حولها نهاية العمران غربًا والطريق بينها وبين بولاق مقفرة خالية من العمران لذلك كانت بولاق تعد من ضواحي العاصمة كما كانت مصر القديمة أيضًا وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها إلا مزارع وحدائق ولم يكن علي شاطئ النيل سوي بعض مبان قليلة كقصر إبراهيم بك " قصر العيني " تجاه الروضة وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرناؤوطي وعن شماله بيت لمصطفي بك ، وكانت بولاق مرفأ القاهرة في الشمال ومصر القديمة مرفأها في الجنوب)٧١

ويضيف الرافعى (وبالرغم مما أصاب البلاد والعاصمة من التأخر في خلال العصور فإن عظمتها القديمة قد تغلبت علي عوامل الفناء وسوء الإدارة فقد كانت أعظم بلاد الشرق قاطبةً بعد الأستانة وكان بها كثير من المساجد والعمائر الجميلة وكثير من القصور والمعاهد ودور الكتب الملحقة بها والحمامات وبها كثير

---

[٦٩] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٢ صفحة ٦٠٤

[٧٠] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٦٥

[٧١] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٦٧ ، ٦٨

من الأسواق التجارية الكبيرة والخانات والمخازن " الوكائل ")٧٢ وبالمناسبة كان هناك أربعة ميادين رئيسية كبيرة منها ميدان قراميدان تحت القلعة وميدان الرميلة المجاور لقراميدان ويفصلهما باب اسمه قراميدان وميدان بركة الفيل وميدان الأزبكية " بركة الأزبكية " (وكان ميدان الأزبكية أو بركة الأزبكية كما كانوا يسمونها أجمل الميادين الأربعة تحيط به القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان)٧٣ وكان تقدير عدد سكان العاصمة القاهرة حوالي ٣٠٠٠٠٠ نسمة٧٤ وفي تقدير آخر ٢٦٣٠٠٠ نسمة وكانت الإسكندرية ولازالت أهم وأكبر مدينة بعد القاهرة

بركة الأزبكية

ولقد أبدع المؤرخون والرحالة والشعراء في وصف بركة الأزبكية ، فقال عنها الأديب والرحالة الفرنسي سافاري C.E.Savary وقد شهد بها احتفالات كسر الخليج إبان زيارته لمصر عام ١٧٧٦ واستقر بها ثلاث سنوات ، : (كان أكثر الازدحام بطبيعة الحال عند الأزبكية وهي أوسع مناطق المدينة ويبلغ محيطها أكثر من نصف فرسخ وتكون بحيرة رحبة محاطة بقصور البكوات وهي أجمل بيوت المدينة ، وتضاء بأنوار مختلفة الألوان وتسبح فوقها آلاف من المراكب ذات سوار تتدلي منها المصابيح المضيئة ، مكونة هالة من أضواء متحركة تتغير مشاهدها كل لحظة ، وتنسب الأزبكية إلي الأمير سيف الدين أزبك بن ططغ الأشرفي الظاهري الذي كان يقطن بالقرب من هذه المنطقة ، فأراد أن ينشئ مناخًا لخيوله وجماله ، فمهد ما كان بها من كيمان ، وحفر بها البركة المنسوبة إليه وأجري إليها الماء من الخليج الناصري ، وجدد عمارة قنطرة خليج الذكر وبلغ ما أنفقه مائتي ألف دينار وشيد بها جامعًا (بالقرب من مدخل شارع الأزهر حاليًا) بالإضافة إلي عدد من القصور والربوع والقياسر والحمامات والحوانيت حتي صارت مدينة علي انفرادها كما قال المؤرخ العلامة ابن اياس ، وذكر علي باشا مبارك أن مساحة البركة كانت ستين فدانًا ، كما أشار الكاتب والرحالة دي تيفينو الذي زار القاهرة عام ١٦٥٦ وتحدث عن مشاهداته القاهرية في كتابه (رحلات في أوروبا وآسيا وأفريقيا) فبالقرب من الطريق المؤدية إلي بولاق استرعي انتباهه حي أسماه لزبيكة يقصد الأزبكية وقال إن الماء يبقي فيه نحو أربعة أو خمسة أشهر كل عام ، وشيدت حول البركة قصور رائعة الجمال للبكوات وأمراء البلاد ليمكثوا بها بضعة أيام من حين إلي آخر ، طلبًا للراحة والاستجمام وقد أشار المؤرخ العظيم الجبرتي إلي شهرة الأزبكية كمركز للتنزه والملذات والمتع الليلية في

---

[٧٢] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٦٩
[٧٣] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٦٩
[٧٤] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٧٠

وقت الفيضان ، كما أنها كانت منطقة جذب للطبقة البرجوازية من الأمراء والبكوات وكبار التجار والأعيان ، ومن أشهر القصور والدور التي كانت تشرف علي بركة الأزبكية دار السيد إبراهيم بن سعودي وكانت دار عظيمة عني بتشييدها ثم آلت إلي الأمير محمد بك الألفي سنة ١٧٩٦ فهدمها وتغالي في إعادة بنائها ولم يسكن بها سوي أيام حتي اغتصبها الفرنسيون وأقام بها نابليون واتخذها مقرًا لقيادة الحملة ، أيضًا من الدور الشهيرة التي أوردها الجبرتي دار الشيخ عبد الله الشبراوي والسيد الدمرداش – – كذلك شيد علي بك الكبير سنة ١٧٧٠ قصرًا لزوجه الست نفيسة ، وقصر رضوان بك ، والدار العظيمة للست خاتون زوجة مراد بك وكانت ذات ثراء وعز وسيادة وكلمة نافذة وعلي الحافة كانت دور الشربيني قال عنها الجبرتي : إحدي دور المجد ، ألحقت بها مكتبة قيمة حافلة وكان مسموحًا فيها بالإطلاع والاستعارة خارجها ، ثم انتقلت ملكيتها للأمير رضوان كتخدا الجلفي فأدخل عليها كثيرًا من التعديلات ووسع حدائقها وأباحها للنزهة ، – – وعند الشروع في عملية تنظيم ميدان العتبة وفتح شارع محمد علي (القلعة) هدم جامع أزبك وكثير من البيوت والزوايا والحمامات والربوع والحوانيت وردمت البركة عام ١٨٦٤ بعد أكثر من أربعة قرون من حفرها ، وشيدت حديقة الأزبكية وأقيمت بها الجبلاية الصناعية وزرعت بها الأشجار النادرة ، أشرف علي تصميم الحديقة وتنفيذها المهندس باريل بك وهو الذي نظم حدائق الأورمان ، وصمم سراي الجيزة ، وأنشئ بالحديقة مسرح كوميدي في سنة ١٨٦٩ أنشئت دار الأوبرا الخديوية وكانت مساحة الحديقة نحو ٢١ فدان ، وفي ٢٧ إبريل سنة ١٩٥٤ امتد شارع ٢٦يوليو ليخترق الحديقة ويقسمها إلي شطرين وفتحت أبوابها لجماهير الشعب ، وأقيم بها مسرح للعرائس ومسرح ٢٦ يوليو ، أما مسرح الأزبكية (المسرح القومي) فقد كان موجودًا من قبل ، وكانت تديره شركة مصر للتمثيل والسينما إحدي شركات بنك مصر ، وكان بجوار المسرح داخل الحديقة مكان يستخدم سينما في الهواء الطلق صيفًا وللباتيناج شتاءًا٧٥ ، وأعتقد أن هناك الكثير الذي يمكن قوله عن العصر العثماني ، فإذا ذكرنا العصر العثماني لابد أن نذكر أمير البنائين في ذلك العصر

الأمير عبد الرحمن كتخدا

(عبد الرحمن كتخدا –من مماليك العصر العثماني– بنَّاء عظيم عالي الهمة في أيام العثمانيين، يعتبر في مقدمة الساعين في تجميل القاهرة وترصيعها بمبانيه. كان صاحب نفوذ قبل أيام علي بك الكبير، وقد ورث

٧٥ نقلًا باختصار عن كتاب – القاهرة رحلة في المكان والزمان – تأليف عرفه عبده علي –تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

عبد الرحمن ميوله الفنية عن أبيه الذي استطاع أن يشيد مما جمعه من ثروة – مدرسة ومسجدًا وسبيلًا بالقرب من بركة الأزبكية، وفي يوم افتتاحها ملأ حوضًا كبيرًا وكل ما وصلت إليه يده من الأواني بالشراب المحلى بالسكر ليسقي الأهالي. وبنى منشئات خيرية أخرى.كان الأمير عبد الرحمن كتخدا مصر (محافظًا لها) في عام ١٧٤٤ وقد عشق البناء، فأنشأ وجدد كثيرًا من المساجد والأسبلة والأضرحة. وقد اشتهر عبد الرحمن بما أدخله من زيادات في الجانب الشرقي من الأزهر، ومن بينها ضريحه الخاص وجزء من المدخل وخمسون عمودًا من رواق القبلة ومنبر ومحراب جديدان وشيد مئذنتين وبابي الشوربة والصعايدة وجمع عبد الرحمن كتخدا في أكثر مبانيه بين الجمال والفن، ويتجلى ذلك في سبيله الرائع الواقع عند ملتقى شارعي النحاسين والجمالية والمعروف باسمه حتى اليوم.

ولهذا السبيل ثلاث واجهات بها ثلاث فتحات عقودها من الرخام الملون و"تواشيحها" من الرخام الدقيق موضوع عليها شبابيك نحاسية، ويعلو السبيل كُتَّاب ذو مظلات وحواجز من خشب الخرط. ويتضمن السبيل كتابات تحتوي على اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء (١١٥٧هـ/١٧٤٤) أما حجرة السبيل فقد غشيت جدرانها بالقاشاني، وعلى جزء من جداره الشرقي رسم صورة الكعبة الشريفة. وأنشأ الأمير عبد الرحمن عند باب الفتوح مسجدًا وصهريجًا وكتابًا، وفي مدخل الأزهر أعاد بناء المدرسة الطبرسية وجعلها مع مدرسة الأقبغاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير من أحسن المباني فخامة وبهاء، كما أنه بنى المشهد الحسيني، وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب مسجدًا وصهريجًا وحوضًا وسقايةً ومكتبًا، وشيد مسجدًا بجهة الأزبكية ومكتبًا وحوضًا. وبنى مشهد السيدة زينب، ومشهد السيدة سكينة والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة، والسيدة فاطمة والسيدة رقية، وعمر المدرسة السيوفية كما جدد المارستان المنصوري وغير ذلك من المساجد والأسبلة.ومن أجمل عمائره– دار سكنه بحارة عابدين وكانت من الدور العظيمة المحكمة الإتقان والبناء، لم تماثلها دار بمصر في حسنها وزخرف مجالسها وبابها من النقوش والرخام والقاشاني، وغرس بها بستانًا بديعًا بداخله قاعة متسعة بوسطها نافورة مفروشة بالرخام. وموجز القول أن عدد المساجد التي بناها أو جددها عبد الرحمن كتخدا بلغ ثمانية عشر مسجدًا، يضاف إليها الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والقناطر ..الخ.

وقد عظم شأن عبد الرحمن كتخدا حتى استفحل أمر علي بك الكبير، فأخرجه منفيًا إلى الحجاز وذلك في أول ذي القعدة عام ١١٧٨هـ (١٧٦٤) فأقام بالحجاز اثنتي عشرة سنة حتى أحضره يوسف بك أمير الحج

في عام ١١٩٠هـ (١٧٧٦) بعد أن استولى عليه الهرم، فدخل إلى بيته مريضًا، فأقام فيه أحد عشر يومًا ثم مات، ودفن بالمدفن الذي أعده لجثمانه بجوار باب الصعايدة بالأزهر)٧٦.

رحمه الله ورحم جميع موتي المسلمين ، وهناك شخصيات أخري شهيرة في العصر العثماني لا يتسع المجال لذكرها ولكن هناك شخص يمكننا الحديث عنه وهو ليس من الأمراء وكانت له مكانة خاصة ، واسمه اسماعيل أبو طاقية شهبندر التجار

شاهبندر التجار في العصر العثماني

اتخذت الحياة العملية لإسماعيل أبو طاقية في مجال التجارة الدولية أبعادًا كثيرة منذ مطلع التسعينيات من القرن السادس عشر ، فعلي الصعيد الجغرافي ظل البحر الأحمر يمثل القطاع الأكبر لنشاطه التجاري ، ولكنه ما لبث أن امتد شرقًا إلي مخا باليمن ، ثم إلي الهند ، وكانت الشبكة التجارية التي أقامها تضم شركاء ووكلاء يسافرون بين القاهرة والهند ، أو إلي مكة وجدة ، حيث ينتدبون شريكًا من الشركاء هناك للسفر إلي الهند نيابة عنهم ، وهو ما كان يفعله غيره من تجار ذلك الزمان ، وكانت الهند عندئذ أقصي مركز تجاري في الشرق يتعامل معه تجار القاهرة ، وإضافة إلي ذلك ، أقام إسماعيل أبو طاقية شبكة تجارية أخري ضمت بعض مدن البحر المتوسط وامتدت إلي استانبول وسالونيك والبندقية ، فكان يصدر نسبة كبيرة من البضائع التي يجلبها من الهند إلي بعض موانئ الدولة العثمانية وأوروبا عن طريق الإسكندرية ورشيد ودمياط ، وكان له وكيل تجاري في أفريقيا ، مصدر تجارة الذهب وريش النعام والعاج ، وبلغ نشاطه مدينة كانو في نيجيريا

وسبحان الله ، كل هذه البلاد كان يتعامل معها هذا الرجل بدون انترنت أو تليفونات او اتصالات من اي نوع ، وفوق كل ذلك ، اهتم اسماعيل أبو طاقية بالتجارة المحلية ، وخاصة تجارة منطقة الدلتا ، وتنوعت البضائع التي أتجر بها تنوعًا كبيرًا كالأحجار الكريمة وخاصة ياقوت سرنديب والذهب الذي جلبه من كانو ، وعند نهاية القرن السادس عشر كانت التوابل السلعة الغالبة في التجارة وليس الأحجار الكريمة واحتل البن منزلة تقع بين النوعين وينسحب نفس الشئ علي السكر الذي كان اسماعيل أبو طاقية يصدره بكميات متزايدة في مطلع القرن السابع عشر ، كما أتجر بالمنسوجات علي نطاق واسع

وتوجت حياة إسماعيل أبو طاقية العملية عندما أصبح شاهبندر التجار عام ١٠٢٢هـ /١٦١٣م واحتفظ اسماعيل بالمنصب حتي وفاته عام ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م ، وقد مارس اسماعيل أبو طاقية مهام الشاهبندر

---

[٧٦] نقلًا عن كتاب عبد الرحمن زكي، بناة القاهرة في ألف عام، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ٧٨- ٨٠

باهتمام كبير ، فكان يتدخل في المسائل التي تهم التجار ويتوسط في المنازعات التي تنشب بينهم ويشهد علي معاملاتهم ، فكان حاضرًا دائمًا عند الحاجة إليه وكانوا يتوقعون مساعدته دائمًا عند الأزمات

ومن الطريف أن نري كيف كان الشاهبندر يُستقبل عند قدومه إلي السوق كل صباح لممارسة عمله ، فقد جرت العادة أن يصحبه التجار إلي مقر الشاهبندر ويقرأون الفاتحة أمامه ويتمنون عليه يومًا طيبًا ثم ينصرف كل منهم إلي متجره ، وتدل الحكاية علي أن الشاهبندر كان يتمتع بقدر كبير من التبجيل

وقد أدار أبو طاقية تلك الشبكة التجارية من مقره بالقاهرة دون أن يضطر إلي مغادرتها ، سواء للسفر خارج البلاد أو إلي الأقاليم الداخلية التي تعامل معها ، والعجيب أنه لم يزد المجال المكاني الذي تحرك فيه إسماعيل أبو طاقية خلال ممارسته العمل الروتيني اليومي عن مسافة بلغت حوالي كيلومتر واحد ، فكان يخرج من بيته الكائن بالقرب من سوق أمير الجيوش ، شمالي المدينة ، متخذا طريقه فيما وراء جامع الأقمر الفاطمي ، والمجموعة المعمارية للسلطان قلاوون في قلب المدينة ، حتي يصل إلي أحد حوانيته بسوق الوراقين ، أو بعض حواصله بوكالة الحمزاوي ، وقد يذهب من حين لآخر إلي الوكالة الكبري والوكالة الصغري وراء مجموعة قلاوون المعمارية ، ومن تلك المواقع زاول إسماعيل أبو طاقية نشاطه ، وارتبط بهذا الروتين اليومي ارتباطًا وثيقًا زياراته المتفرقة للمحاكم ، حيث كان يسجل الصفقات التي أبرمها في السوق أو الوكالة علي أوراق رسمية في سجلات المحكمة ، وهكذا كان أبو طاقية يدير شبكة تجارية امتدت عبر ثلاث قارات ، لقد حدثت تطورات عمرانية ملحوظة في زمن أبو طاقية ، ونظرًا لأن معظم تلك التطورات حدثت علي يد التجار ، وتؤكد الانطباعات التي نخرج بها من كتابات الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر ، ويذكر مايكل هيبرر فون بريتن في ١٥٨٥م أن المدينة كانت كبيرة ومزدحمة بالناس ، ولا شك أن انطباعاته جاءت علي وسط المدينة الذي كان أكثر أنحاء القاهرة ازدحامًا ، وبعد ذلك ببضع سنوات ، يذكر الرحالة الألماني يوهان فيلد الذي اقام بالمدينة فيما بين ١٦٠٦-١٦١٠م أن التجارة كانت بالغة الازدهار ، وأنه انبهر بالحوانيت المليئة بالتوابل والأحجار الكريمة والأخشاب الثمينة ذات الروائح الذكية والقلانس الجميلة والمنسوجات القطنية الرفيعة التي جاءت من الشرق كما شاهد المرجان والمنسوجات الصوفية التي جلبها البنادقة[٧٧] ، وبالتالي لم يكن العصر العثماني بكل هذا السوء الذي نسمعه عنه حاليًا فكل عصر له إيجابياته وسلبياته

- [٧٧] مقتطفات مختصرة نقلًا كتاب تجار القاهرة في العصر العثماني – سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار – تأليف د نللي حنا – ترجمة وتقديم د رءوف عباس – الناشر الدار المصرية اللبنانية – الطبعة الأولي ١٩٩٧م

ولكن علي أي حال كان المماليك في موقف أقوي من الوالي العثماني ، فمع الوقت ازداد نفوذ المماليك حتي أصبحوا قادرين علي عزل الوالي العثماني والإرسال للسلطان بطلب تغييره حيث يقوم شخص يطلقون عليه الأودة باشا بالذهاب إلي الوالي في القلعة مقر الحكم ويقول له الكلمة الشهيرة (انزل يا باشا) ويتم تعيين قائمقام لحين حضور والي جديد ، وأصبح منصب شيخ البلد هو أهم منصب في مصر والذي يشغله أحد أمراء المماليك (البكوات) ، وأصبحوا يتنافسون فيما بينهم للوصول لهذا المنصب

أما قبل وصول نابليون بونابرت ومعه الحملة الفرنسية علي مصر فكان هذا المنصب يشترك فيه اثنان من الأمراء وهما إبراهيم بك ومراد بك

البكوات المماليك يواجهون جيش الحملة الفرنسية

كان المماليك كمن توقف بهم الزمن عند أيام أسلافهم من سلاطين المماليك قبل خضوع مصر للحكم العثماني فكانوا يعيشون علي ذكريات أمجاد الانتصارات التاريخية القديمة علي التتار والصليبيين وغيرهم فلم يدركوا حجم التطور الهائل الذي وصل إليه جيش نابليون بونابرت ، فقد وصف الجبرتي عدم اهتمامهم عند سماعهم خبر قدوم الحملة الفرنسية علي مصر ، ولكي نحكم علي مدي التطور الذي حدث للجيش الفرنسي سنذكر آخر مواجهة تمت بين الجيشين المملوكي والفرنسي في معركة المنصورة وكان ما بين معركتي المنصورة (١٢٥٠م) وإمبابة (١٧٩٨م) حوالي ٥٤٨ سنة ، وكلا المعركتين دارت بين الجيش الفرنسي والجيش المملوكي وإن كان الجيش المملوكي في معركة المنصورة كان بقيادة أيوبية ، وانتصر المماليك في معركة المنصورة علي الجيش الفرنسي وتم أسر الملك لويس التاسع واحتجازه بدار ابن لقمان بالمنصورة ، بينما انتصر الجيش الفرنسي في معركة إمبابة علي المماليك ، والفرق هائل بين المعركتين ، إنه فرق يوضح مستوي التدهور في أحوال مصر وأحوال المماليك أنفسهم ، ولقد ذكر المؤرخون العديد من الانتصارات الساحقة التي قام بها المماليك البحرية والمعارك الشرسة التي قام بها المماليك البرجية ، فلماذا لم يتمكن مماليك العصر العثماني من تحقيق بعض هذه الانتصارات ، وإن كان المؤرخ الذي وصف معركة الأهرام لم ينكر عليهم الشجاعة والبسالة ، ومن هنا يتضح أن صفة الشجاعة في القتال لم تتأثر مع الزمن ولكن الذي اختلف هو الجهل والتخلف[٧٨]

وقد وردت تفاصيل عجيبة عن المعركة التي دارت بين المماليك والفرنسيين في الكتاب الخامس من سلسلة كتب –صفحات من تاريخ مصر– وهو بعنوان تاريخ مصر من عهد المماليك إلي نهاية حكم اسماعيل –

[٧٨] تأملات عصرية في الحملة الفرنسية – محمد عرموش

تأليف المستر جورج يانج – تعريب : علي أحمد شكري – الطبعة الثانية ١٩٩٦ – مكتبة مدبولي – ويؤكد المؤرخ جورج يانج في هذا الكتاب أن فن المماليك العسكري قد صار عتيقاً ويقول : وقد نشعر بالعطف علي ما أظهره المماليك من الإقدام والبسالة عند مهاجمتهم لنابليون ، وقد رأي نابليون أن احتلال مصر عسكرياً لن يكلفه متاعب كبيرة لأن الجيش الفرنسي وعدده حوالي ٤٠٠٠٠ زحف بطريق الصحراء بشكل مربع مجوف علي القاهرة وكان رسل المدنية الحديثة –علماء الحملة– المائة والاثنان والعشرون في قلب الجيش بينما جيش المماليك في عرض الأفق ووقف المماليك يرمقون العدو بنظرة الاحتقار والإزدراء ،

وأخيراً برز أحدهم ظاناً أن عصر الفروسية ما يزال باقياً وقد لبس عدة الحرب الكاملة المطرزة بالحرير وتقدم إلي الفرنسيين حتي صار علي بضع خطوات منهم ، وهنالك طلب مبارزة الكولونيل ، ولكن الفرنسيين وقد أضناهم الحر والجوع والعطش – أجابوا علي طلب المبارزة بإطلاق الرصاص من بنادقهم فتركوا صاحبنا نصير الفروسية مجرد سلب ملطخ بالدماء ، وما كانت معركة الأهرام التي نشبت علي أثر ذلك وحاول فيها المماليك منع دخول الفرنسيين إلي القاهرة سوي تكرار لهذا الحادث ولكن علي مقياس أكبر ، فقد اشترك فيها نحو ١٠٠٠٠ من فرسان المماليك وبضعة آلاف من المشاه الإنكشارية وعدد من المقاتلين المصريين ولكن كان نصيبهم جميعاً الهزيمة ثم الغرق في مياه النيل ، هذا في حين أن خسائر الفرنسيين لم تتجاوز المائة ، علي أن بكوات المماليك لم يجيدوا الكر والفر فقط بل كثيراً ما اقتحموا مربعات القادة الفرنسيين – ديزيه ورينييه ولكن هذا الاستبسال كانت نتيجته الفناء الأكيد ، وجدير بالذكر أن هذه المعركة المعروفة باسم معركة الأهرام أو معركة إمبابة تمت في يوم ٢١ يوليو سنة ١٧٩٨ نزل الفرنسيون علي بعد ميلين من إمبابة فكانوا بين النيل والأهرام وإمبابة أمامهم ، وفيها مراد بك وجنوده وهم بدروعهم البراقة وملابسهم الزاهية ، فلما رأي بونابرت حسن استعدادهم التفت إلي جنوده وقال جملته المأثورة : اعلموا أن خمسين قرناً تنظر إليكم من قمم هذه الأهرامات وتراقب حركاتكم تنظر ما سيصبح عليه أمركم مع هؤلاء المماليك – – ثم أمر فرقة الجنرال ديزيه بالتقدم نحو اليمين والفرق الأخري نحو اليسار – – لكن مراد بك أدرك سر هذه المناورة فأمر أيوب بك الدفتردار بالهجوم ، فهجم أيوب بك وهو يصيح : ويل لكم أيها الملاعين ، قد ساقكم كبرياؤكم إلي أرضنا – – إننا سنملأ القبور بأجسادكم ونجعل هذا اليوم يوماً تذكره أعقابكم من بعدكم – – ودارت المعركة إلي أن تقهقر المماليك وقتل أيوب بك وفر مراد بك إلي الصعيد واستولي بونابرت علي إمبابة

نهاية البكوات المماليك

وهكذا احتلت الحملة الفرنسية مصر ومكثت فيها ما يقرب من ثلاث سنوات ولم يتمكن العثمانيون من طردها من مصر إلا بعد أن تحالفوا مع الإنجليز ثم استطاع محمد علي باشا الوصول للسلطة في مصر بعد مغادرة الحملة الفرنسية ، وظل في صراع مع البكوات المماليك يقاتلهم مرة ويخادعهم مرة أخري

وهزم من تمكن من هزيمته في ساحات القتال ، أما من لم يتمكن من هزيمتهم فقد صالحهم وأعطاهم الأمان وسكنوا في القاهرة معززين مكرمين وأعطاهم الأموال والأراضي وعاشوا حياة كريمة في ظل حكمه بشرط أن يبتعدوا عن السلطة وعدم المنافسة عليها

ولم يعودوا يشكلون أي خطر من أي نوع ، ولكنهم في نفس الوقت كانوا يحصلون علي الكثير من المال ويمتلكون القصور والأراضي وينعمون بالخدم والأتباع وكان قد انتهي تفكيرهم تمامًا في الوصول للحكم ، بل وكان من الممكن سحب امتيازاتهم في أي وقت ولن تكون لديهم القوة للاعتراض بل ولا يملكون تحريك الرعية أيضًا ، ولكن يبدو أن مجرد وجودهم كان يزعج محمد علي باشا

وتم وضع الخطة والتي تتلخص في افتعال مناسبة كبري أو احتفال ضخم ليجمعهم كلهم بالقلعة ويقتلهم ، فهناك مكان بالقلعة إذا ساقهم إليه وأغلق عليهم الأبواب لن يتمكنوا من الهرب فيمكن القضاء عليهم بإطلاق النار من أعلي الأبراج والأسوار

ولكن ما هي المناسبة التي يمكن أن يدعوهم إليها والتي تستوجب تحركهم في موكب حافل ليسوقهم إلي حيث يريد ؟

واستغل محمد علي ما كان يرسله السلطان العثماني من الرسائل لتوجيه جيشًا لقتال الوهابيين في الحجاز ورغم أنه لم يقرر إرسال ذلك الجيش بعد فقد قرر أن يقوم بإيهام الجميع بذلك ، فقرر أن يقوم بدعوة المماليك لحضور حفل وداع لابنه طوسون باشا قبل سفره علي رأس ذلك الجيش ، فيتحرك الموكب ويوجهه إلي ذلك المكان ، ويقر محمد علي باشا الخطة ويضيف إليها لمساته الخاصة ويشرع في تنفيذها في سرية تامة ، وبالفعل قام محمد علي باشا بإعلان تقليد ابنه طوسون باشا ليصبح ساري عسكر الركب الموجه إلي الحجاز ويتم إنشاء معسكر بالفعل يحتوي علي عدد كبير من الخيام ويتم حشد القوات فيه ، وأظهر محمد علي باشا الاهتمام الزائد لإعداد الجيش ، وزيادة في الخداع طلب من المنجمين أن يختاروا وقتًا صالحًا لإلباس ابنه خلعة السفر فاختاروا له الساعة الرابعة من يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١م

ويقول الجبرتي : (فلما كان يوم الخميس رابعه طاف ألاي جاويش بالأسواق علي صورة الهيئة القديمة في المناداة علي المواكب العظيمة وهو لابس الضلمة والطبق علي رأسه وراكب حمار عال وأمامه مقدم بعكاز ، وحوله قابجية ينادون بقولهم يا رن آلاي ، يا رن آلاي ، ويكررون ذلك في أخطاط المدينة وطافوا بأوراق التنابيه علي كبار العسكر والأمراء المصرية الألفية وغيرهم يطلبون منهم الحضور في باكر النهار إلي القلعة ليركب الجميع بتجملاتهم وزينتهم أمام الموكب ، فلما أصبح يوم الجمعة سادسه ركب الجميع وطلعوا إلي القلعة وطلع الأمراء المصرية بمماليكهم وأتباعهم وأجنادهم فدخل الأمراء عند الباشا وصبحوا عليه وجلسوا معه حصة من الوقت وشربوا القهوة وتضاحك معهم)

وشكرهم الباشا علي إجابتهم دعوته وألمع إلي ما ينال ابنه من التكريم إذا ما ساروا معه في موكبه فأجابوه بالشكر ، وعندئذ نهض المماليك وساروا إلي حيث يأخذون مكانهم في الموكب الفخم

وكان الموكب يتواجد به مجموعات من الجنود تسير أمام وخلف مجموعة المماليك ، وكان يمر بمنطقة شديدة الضيق بالقلعة وهي المنطقة المخططة وفي نهايتها باب خرج منه مقدمة الموكب ثم تم إغلاقه علي المماليك والجنود وانهال عليهم ضرب النار من أعلي الأماكن المجاورة لهذا الممر الضيق

ولم يستطع المماليك دفاعًا عن أنفسهم ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة علي الحركة أو الرجوع القهقرى أو النزول عن جيادهم لضيق المكان الذي حُصِروا فيه ولأنهم جاءوا الاحتفال من غير بنادق ولا رصاص ولم يكونوا يحملون سوي سيوفهم وهيهات أن تعمل السيوف في ذلك الموقف شيئًا فانصب عليهم الرصاص وحصدهم حصدًا وجاءهم الموت من كل مكان

وهكذا دخل القلعة في صبيحة ذلك اليوم أربعمائة وسبعون من المماليك وأتباعهم قُتِلوا جميعًا ولم ينج منهم إلا رجل واحد كان في مؤخرة الصفوف وقفز بجواده من فوق سور القلعة وتلقي الجواد الصدمة ونجا هو وفر متنكرًا إلي أن وصل سوريا فيما بعد

وكانت المذبحة مؤامرة محكمة من محمد علي استطاع أن يقتل فيها من لم يستطع أن يقتله في ساحات القتال حيث الأماكن المخصصة للقتل الشريف ، أما ما فعله محمد علي باشا فهو غدر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني ، ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن المماليك ، ولكن مهما بلغت سيئاتهم فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الإنسانية ولو أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجهًا لوجه حتي تخلص منهم في ميادين القتال لكان ذلك خيرًا له ولسمعته ، ولو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد علي هدفًا لأحكام التاريخ القاسية

ومن جهة أخري فإن الفتك بالمماليك علي هذه الصورة الرهيبة قد كان له أثر عميق في حالة الشعب النفسية لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب في قلوب الناس وكان من نتائجها أن استولت الرهبة علي القلوب فلم يعد ممكنًا إلي زمن طويل أن تعود الطمأنينة إلي نفوس الناس

وهكذا انتهت قصة المماليك في مصر من سلاطين بحرية إلي سلاطين برجية إلي بكوات العصر العثماني إلي مذبحة القلعة .

الملحق (أ) أسماء سلاطين المماليك :

أولًا أسماء حكام المماليك البحرية

م	السلطان	مدة الحكم	من سنة	إلي سنة	ملاحظات
١	المعز عز الدين أيبك	٧	١٢٥٠	١٢٥٧	
٢	المنصور نور الدين علي بن ايبك	٢	١٢٥٧	١٢٥٩	
٣	المظفر سيف الدين قطز	١	١٢٥٩	١٢٦٠	
٤	الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري	١٧	١٢٦٠	١٢٧٧	
٥	السعيد بركة خان بن بيبرس	٢	١٢٧٧	١٢٧٩	
٦	العادل سلامش بن بيبرس	١	١٢٧٩	١٢٧٩	
٧	المنصور سيف الدين قلاوون الألفي	١١	١٢٧٩	١٢٨٩	
٨	الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون	٤	١٢٨٩	١٢٩٣	
٩	الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون	١	١٢٩٣	١٢٩٤	
١٠	العادل زين الدين كتبغا	٢	١٢٩٤	١٢٩٦	
١١	المنصور حسام الدين لاجين	٢	١٢٩٦	١٢٩٨	
١٢	الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون	١٠	١٢٩٨	١٣٠٨	
١٣	المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير	٢	١٣٠٨	١٣٠٩	
١٤	الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون	٣٢	١٣٠٩	١٣٤١	
١٥	المنصور سيف الدين أبو بكر بن محمد بن قلاوون	-	١٣٤١	١٣٤١	
١٦	الأشرف علاء الدين كجك بن محمد بن قلاوون	٢	١٣٤١	١٣٤٢	
١٧	الناصر شهاب الدين أحمد بن محمد بن قلاوون	١	١٣٤٢	١٣٤٢	
١٨	الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون	٣	١٣٤٢	١٣٤٥	
١٩	الكامل سيف الدين شعبان بن محمد بن قلاوون	١	١٣٤٥	١٣٤٦	
٢٠	المظفر زين الدين حاجي بن محمد بن قلاوون	١	١٣٤٦	١٣٤٧	
٢١	الناصر حسن بن محمد بن قلاوون	٤	١٣٤٧	١٣٥١	
٢٢	الصالح صلاح الدين صالح بن محمد بن قلاوون	٣	١٣٥١	١٣٥٤	
٢٣	الناصر حسن بن محمد بن قلاوون	٧	١٣٥٤	١٣٦١	

٢٤	المنصور محمد بن حاجي بن محمد بن قلاوون	٢	١٣٦١	١٣٦٣
٢٥	الأشرف زين الدين شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون	١٤	١٣٦٣	١٣٧٧
٢٦	المنصور علي بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون	٤	١٣٧٧	١٣٨١
٢٧	الصالح أمير حاج بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون	١	١٣٨١	١٣٨٢

ثانيًا : أسماء حكام المماليك البرجية

م	السلطان	مدة الحكم	من سنة	إلي سنة	ملاحظات
١	الظاهر سيف الدين برقوق	٦	١٣٨٢	١٣٨٨	
٢	الصالح أمير حاج بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون	٢	١٣٨٨	١٣٩٠	
٣	الظاهر سيف الدين برقوق	٩	١٣٩٠	١٣٩٩	
٤	الناصر زين الدين فرج بن برقوق	٦	١٣٩٩	١٤٠٥	
٥	المنصور عز الدين أبو العز بن برقوق	-	١٤٠٥	١٤٠٥	
٦	الناصر زين الدين فرج بن برقوق	٧	١٤٠٥	١٤١٢	
٧	الخليفة العباسي المستعين بالله أبو الفضل العباس	-	١٤١٢	١٤١٢	
٨	المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	٩	١٤١٢	١٤٢١	
٩	المظفر أبو السعادات أحمد بن شيخ	-	١٤٢١	١٤٢١	
١٠	الظاهر سيف الدين ططر	١	١٤٢١	١٤٢١	
١١	الصالح ناصر الدين محمد بن ططر	-	١٤٢١	١٤٢١	
١٢	الأشرف برسباي	١٦	١٤٢١	١٤٣٨	
١٣	العزيز أبو المحاسن الدقماقي بن برسباي	-	١٤٣٨	١٤٣٨	
١٤	الظاهر جقمق	١٥	١٤٣٨	١٤٥٣	
١٥	المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان بن جقمق	-	١٤٥٣	١٤٥٣	
١٦	الأشرف إينال العلائي	٨	١٤٥٣	١٤٦١	
١٧	المؤيد أحمد بن إينال	-	١٤٦١	١٤٦١	
١٨	الظاهر خوش قدم	٧	١٤٦١	١٤٦٧	
١٩	الظاهر بلباي	-	١٤٦٧	١٤٦٧	
٢٠	الظاهر تمربغا	١	١٤٦٧	١٤٦٨	

٢١	الأشرف سيف الدين قايتباي	٢٨	١٤٦٨	١٤٩٦
٢٢	الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد بن قايتباي	٢	١٤٩٦	١٤٩٨
٢٣	الظاهر أبو سعيد قانصوة بن قانصوة الأشرفي	١	١٤٩٨	١٤٩٩
٢٤	الأشرف أبو النصر جان بلاط	-	١٤٩٩	١٤٩٩
٢٥	العادل أبو النصر طومان باي بن قانصوة	٢	١٤٩٩	١٥٠١
٢٦	الأشرف أبو النصر قانصوة الغوري	١٥	١٥٠١	١٥١٦
٢٧	الأشرف طومان باي	١	١٥١٦	١٥١٧

الملحق (ب) مصطلحات مملوكية

المصطلح	المعني
هامش	دار : كلمة فارسية تعني ماسك .وتدخل في كثير من أسماء الوظائف المملوكية مثل "الدوادار" و"الركاب دار" و"الخزندار" و"البرددار." خاناه : كلمة فارسية تعني بيت.وتدخل في كثير من أسماء الحواصل مثل "الطشت خاناه" و"الطبلخاناه." شاد : صاحب وظيفة تسمى الشد .وتعنى متخصص في أو متكلم في، وتضاف إلى مجالات متعددة مثل شاد العمائر وشاد الدواوين.
أجناد الحلقة	جنود من الدرجة الثانية. كان عددهم غفير، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم. بلغ عددهم في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون 11 ألفًا. ربما سموا بذلك لأنهم كانوا يحيطون بالسلطان أو بالأعداء. تألفوا من القرانيص والسيفية والمتعممين والعربان والعامة
أمير	مقدم الفرسان. ولكل أمير طبقة تبعًا لعدد فرسانه.
أمير آخور	رئيس الإصطبل السلطاني والمشرف على خيله
أمير خمسة	أمير تحت أمرته خمسة فرسان. أمير من الطبقة الرابعة وهي أقل درجات الإمارة وتوازي درجة كبار الأجناد.
أمير عشرة	أمير تحت أمرته عشرة فرسان وأحيانًا عشرين. أمير من الطبقة الثالثة. منهم يكون صغار الولاة وأرباب الوظائف.
أمير طبلخاناه	أي أمير تدق الطبول والأبواق على أبوابه. وهو أمير تحت أمرته غالبًا أربعين فارس. أمير من الطبقة الثانية. منهم يكون أرباب الوظائف وكبار الولاة.
أمير مئين	مقدمو الألوف. أمير تحت أمرته مائة أو ألف فارس ممن دونه من الأمراء. وهو أمير من الطبقة الأولى وهي أعلى مراتب الإمارة. منهم يكون النواب وأكابر أرباب الوظائف.
أمير مجلس	مشرف وحارس على كرسي وسرير السلطان

أمير علم	أمير من أمراء العشرات كان يشرف على الطبلخاناه
أمير سلاح	حامل سلاح السلطان. وهو مقدم السلاح دارية من المماليك السلطانية، والمشرف على السلاح خاناه السلطانية.
أمير شكار	مشرف على الجوارح السلطانية من الطيور والصيود. كان من أمراء العشرات.
أمراء العربان	رؤساء بيوت القبائل من أصول عربية التي ورت على مصر وأقامت بها، ومنها بنو شاد وبنو عجيل وكانوا يسكنون بالقصر الخراب بقوص، وأولاد بني جحيش وكانت منازلهم في دروة سرمام، وأولاد زعازع، وأولاد قريش (ليست قريش مكة المعروفة)، وبنو عمر بجرجا، وأولاد غريب بدهروط وغيرها. من أشهر أمراء العربان خثعم بن نمي بالوجه البحري.
أتابك	تعني الأب الأمير وهو أمير الجيوش أي القائد العام للجيش. وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد نائب السلطنة .ويدعى أيضًا أتابك العساكر لم تكن له صلاحيات أمر ونهي.
استدار	وتكتب كثيرًا أستادر بضم الألف وهو خطأ. الاستدار كان يشرف على كل بيوت السلطان من مطابخ وحاشية وجاشنكرية ونفقات وكسوة.
استدار الصحبة	أيضًا أستادار الصحبة وهو خطأ ،المشرف على المطبخ السلطاني والطعام وخدمة السماط. عادة أمير عشرة.
إسكندر الزمان	من ألقاب السلطان.
أهوار	جمع هُري، مخازن للغلال والأتبان الخاصة بالسلطان احتياطًا للطواريء الاقتصاية وكانت لا تفتح إلا عند الضرورة.
سكرجة	صحن صغير يوضع على المائدة، وفيه فاتحات الشهية من الطعام.
الصاحب	من ألقاب الوزراء. و"الصاحبي" نسبة إليه للمبالغة.
الكافل	من ألقاب نائب السلطنة.
إقطاع	دخل الأمير أو المملوك من خراج أرض أو بلدة.
أعلام	عدة رايات، منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب، عليها ألقاب الملك واسمه وتسمى العصابة، وراية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش، ورايات

	صفر صغار تسمى السناجق.
بابا	اسم كان يطلق على غلمان الطشت خاناه وكانت من ضمن وظائفه الاشراف على قباض اللحم. (انظر قابض اللحم(
البحرية	طائفة من الجنود يبيتون بالقلعة وحول دهاليز السلطان في السفر لحراسة السلطان. أول من رتبهم وسماهم بهذا الاسم السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب.
بنكام الرمل	الساعة الرملية. بنكان معرب إما من الكلمة الفارسية قالب:نسعليق أو من أصل يوناني
بيمارستان	أيضًا مارستان. مستشفى وكان الطب يدرس به كذلك.
بريد جوى	بريد يرسل عن طريق الحمام الزاجل. نظمه وتوسع في استخدامه السلطان الظاهر بيبرس
بيت المال	الخزانة العامة
تجار الكارمية	فئة من التجار كانت بيدها تجارة البهار الوارد من الهند.
التخت	عرش السلطان
الچتر	بجيم معطشة ومكسورة. انظر (المظلة (السلطانية((
جامكية	أجر المملوك أو منحته الشهرية، كانت تعطى من غلة الوقف.
جاشنكير	متذوق مأكل ومشرب السلطان أو الأمير للتأكد من خلوه من السم.
الجاليش	راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر.
جاويش	منصب عسكري. أصل اللفظ تركي أو فارسي أو مغولي.
الجلبان	إحدى فرق الجيش المملوكي وكان يشتريهم السلطان لنفسه.
جنائب	جمع جنب، الخيول التي كانت تتبع السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة إليها.
حافظ الأسرار	من القاب كاتب السر.
بردار	وتعني حرفيًا "صاحب الستارة" أي الحاجب، وهو المكلف بفتح الستارة أو غلقها على باب

	الأمير أو الوزير.
جنائب	جمع جنب، الخيول التي كانت تتبع السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة إليها.
حافظ الأسرار	من القاب كاتب السر.
برددار	وتعني حرفيًا "صاحب الستارة" أي الحاجب، وهو المكلف بفتح الستارة أو غلقها على باب الأمير أو الوزير.
جمدار	الذي يلبس السلطان ثيابه.
حراقة	نوع من السفن الحربية الخفيفة كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية.
خان	مخزن تجاري يبيع نوع معين من البضائع.
خادم الحرمين الشريفين	من ألقاب السلطان.
خزندار	تكتب كثيرًا خازندار وهو خطأ (القلقشندي). مشرف على خزائن أموال السلطان من نقد وقماش وغير ذلك.
خاصكية	أقرب المماليك السلطانية على السلطان. وهم الحرس الشخصي للسلطان. وكانوا يسوقون المحمل الشريف. / أو مماليك ينتمون إلى فئة واحدة من المماليك تلتف حول أحد كبار الأمراء.
خليل أمير المؤمنين	من ألقاب أولاد السلطان.
خشداشية	مماليك ينتمون إلى نفس الأمير أو السلطان.
خواجا أو خواجه	لفظ فارسي دخيل في التركية ورسم في اللغتين بهاء في آخره، وهو لقب تكريم عندهم يرادف الأغا والأفندي والسيد، ويطلق أيضًا على الأساتذة المعلمين والمشايخ المعممين، ولقب به كبار التجار منذ القرن السابع الهجري، وظل مستعملًا بمصر حتى القرن الثالث عشر الهجري. و"الخواجكي" نسبة إليه للمبالغة.
العصابة	راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب، عليها ألقاب السلطان واسمه.

علامة سلطانية	رسم توقيع السلطان الذي يضعه على مستندات السلطنة ورسائله
الغاشية	غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب. كانت يحملها " الركاب دارية " بين يدي السلطان في المواكب.
الملاذي	من ألقاب الوزراء
خند	زوجة السلطان
النفير العام	حالة الطوارئ العامة في البلاد وتعلن عند نشوب حرب أو حدوث هجوم خارجي.
رأس البلغاء	من ألقاب أكابر كتاب الإنشاء ككاتب السر.
رأس نوبة	المشرف على المماليك السلطانية. وجرت العادة أن يقوم بالوظيفة أربعة أمراء: مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه ممن تحت امرة كل منهم على الأقل أربعين فارس..
رختوان	جمعها رختوانية. خادم منوط بحفظ الأثاث والعناية به في قصر السلطان. كان من الرختوانية من يخدم في الطشت خاناه.
ركاب دار	حامل الغاشية بين يدي السلطان في المواكب وقت الاحتفالات.
زردخاناه	بيت الزرد لما فيها من دروع وزرد. كان يحفظ فيها السلاح. وهي أيضًا السلاح خاناة.
دبندار	ضارب الطبول.
الدهليز	خيمة السلطان التي كان يقيم بها وقت السفر والمعارك. كانت مركز قيادة الجيش في المعارك.
دوادار أو داودار	حامل دواة السلطان. من وظائفه إبلاغ الرسائل عن السلطان.
فندق	مكان للإقامة نظير أجر. من أشهر فنادق القاهرة في العصر المملوكي: دار التفاح، وفندق بلال، وفندق الصالح.
قابض اللحم	كانت وظيفته توزيع اللحم على المماليك السلطانية.
كافل الممالك الشريفة الإسلامية	لقب نائب السلطنة المقيم بمصر

	الأمير الأمري.
كُشاف	يشرف على الأراضي والجسور ويسمى أيضًا كاشف التراب وكاشف الجسور. وهو أيضًا جابي الضرائب.
كوسات	صنوجات من نحاس، كانت يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص. كان يدق بها مرتين في القلعة في كل ليلة ويدار بها في جوانبها مرة بعد العشاْ، ومرة قبل الفجر. وكان أيضًا يدار بها حول خيام السلطان في سفره.
كوسي	ضارب الكوسات (الصنوج النحاس.(
لسان السلطنة	من ألقاب كاتب السر.
مقدم المماليك	المشرف على المماليك السلطانية. عادة يكون أمير طبلخاناه وله نائب أمير عشرة.
مماليك كتابية	مماليك تحت التدريب يعيشون في الطباق.
مماليك سلطانيه	جنود من الطبقة الأولى.أشد مماليك السلطان قربًا، وأعظم الاجناد شأنًا، وأرفعهم قدرًا، وأوفرهم إقطاعًا. كانوا فرقة واحدة مؤلفة من عدة فئات هي: الخاصكية، والأجلاب، والقرانيص، والسيفية.
المقصورة السلطانية	مكان السلطان للصلاة بالجامع مع خاصكيته. كانت توجد بجامع قلعة الجبل قرب المنبر.
مُنفر	ضارب البوق.
مدورة السلطان	خيمة السلطان التي كان يقيم بها أثناء أسفاره.
المظلة (السلطانية(	وتسمى "الچتر"، قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب؛ على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب، كانت تحمل على رأس السلطان في العيدين.
مرقدار	خادم بالمطابخ السلطانية
مهمندار	مستقبل الرسل الواردين وشيوخ العربان وغيرهم. (مهمن بالفارسية تعنى الضيف(
مهتار	مشرف على بيت من البيوت السلطانية كبير على طائفة من غلمان الحواصل كالطشت خاناه والفراش خاناه. وكان يلقب بالحاج وحتى إن لم يكن قد حج البيت.

نائب السلطنة	نائب السلطان المباشر المقيم بالقاهرة، يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم التقاليد والتواقيع والمناشير، ويستخدم الجند من غير مشاورة السلطان. ويحمل لقب كافل الممالك الشريفة الإسلامية الأمير الأمري تميزًا له عن نواب السلطان في توابع السلطنة بالشام وغيرها.
نائب الأسكندرية	نائب عن السلطان بالأسكندرية وكان بها كرسي سلطنة. وهو من الأمراء المقدمين يركب في المواكب ومعه أجناد الحلقة.
نائب الوجه القبلي	أعلى من نائب الوجه البحري. مقر نيابته كانت في أسيوط .ويحكم على جميع بلاد الوجه القبلي.
نائب الوجه البحري	من الأمراء المقدمين في رتبة مقدم العسكر بغزة. مقر نيابته كانت في دمنهور
ناظر البيمارستان	يشرف على البيمارستان المنصوري (المستشفى). وكانت مرتبته عالية. عادة من أكابر أمراء مصر.
نقيب الجيوش	المشرف على تزيين الجنود في عروضهم ومعه يمشي النقباء. وهو الذي يحضر الأمير أو الجندي إلى السلطان أو النائب أو الحاجب في حالة طلبه.
السناجق	رايات صفر صغار.
شاد الدواوين	مساعد الوزير والمشرف على استخلاص الأموال. عادة يكون أمير عشرة.
شاد العمائر	المشرف على العمائر السلطانية من قصور ومنازل وأسوار وغيرها مما يطلب السلطان. عادة يكون أمير عشرة.
شاد الشراب خاناه	المشرف على الشراب خاناه السلطانية وما بها من مشروبات وفواكه.
شعار السلطنة	تنظيم معين لموكب السلطان كسير مماليكه وأمراءه معه ورفع رايات وسناجق سلطانية وما نحو ذلك.
طبلخاناه	بيت الطبل. مخزن الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات. كان يشرف عليها أمير من أمراء العشرات يعرف بامير علم. / طبول متعددة معها أبواق وزمر كانت تدق كل ليلة في قلعة الجبل بعد صلاة المغرب. وتصحب في اسفار السلطان والحروب.

قلعة الجبل	محل إقامة السلطان وكانت فوق جبل المقطم بالقاهرة.
قرانصة	مماليك تحولوا إلى خدمة أمير آخر أو سلطان جديد.
طباق	محل إقامة المماليك المستجدين بقلعة الجبل.
الطشت خاناه	بيت الطشت. فيها يكون الطشت الذي تغسل فيه الأيدي والطشت الذي يغسل فيه القماش. وفيها يكون ملبس السلطان ونعل البيت ومقاعده والسجادات التي يصلي عليها.
والي القاهرة	يحكم في القاهرة وضواحيها، وهو أكبر ولاة مصر. ويدعى أيضًا باسم والي الشرطة ووالي الحرب.عادة أمير طبلخاناه.
والي الفسطاط	يحكم في مصر (المدينة). عادة أمير عشرة.
والي القرافة	يحكم في القرافة، وهي مدافن القاهرة والفسطاط بمراجعة والي مصر(المدينة) عادة أمير عشرة. في فترة لاحقة أضيفت القرافة إلى مصر (المدينة) وصارت ولاية واحدة.
والي القلعة	يشرف على أكبر أبواب قلعة الجبل بالقاهرة (باب المدرج). أمير طبلخاناه
والي باب القلة	يشرف على باب القلة (كانت هناك قلة بناها الظاهر بيبرس وهدمها المنصور قلاوون(
وزير	من أجل أرباب الدولة وأرفعهم رتبة. ولكن اختصاصاته لا تتجاوز الأمور المالية وبعض الأمور الإدارية. أبطلت الوزارة في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وصار يقوم بعمل الوزير ناظر المال، وشاد الدواوين، وناظر الخاص.

المراجع

١ – عجائب الآثار في التراجم والأخبار – المعروف بتاريخ الجبرتي – عبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتي ولد في القاهرة عام ١٧٥٦ وتوفي في القاهرة عام ١٨٢٥

٢ – كتاب مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري)

٣ – كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية – الجزء الثالث – تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق محمد زينهم ، مديحة الشرقاوي – مكتبة مدبولي

٤ – كتاب هؤلاء حكموا مصر – حمدي عثمان

٥ – كتاب الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد محمد الصلابي)

٦ – كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان ١٨٩٦-١٩٨٦ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ١٩٩٨

٧ – كتاب (المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور) تأليف محمد بن أحمد بن اياس الحنفي – مكتبة الأسرة ١٩٩٦

٨ – كتاب (فصول من تاريخ مصر الإقتصادي والإجتماعي في العصر العثماني) د عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – من سلسلة كتب (تاريخ المصريين) رقم ٣٨ – الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة سنة ١٩٩٠

٩ – كتاب مختارات (٣) من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان – الفصل الثاني – شخصية مصر السياسية – مكتبة مدبولي

١٠ – كتاب طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد)

١١ – كتاب مصر من تاني (محمود السعدني)

١٢ – كتاب موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري)

١٣ – تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١

١٤ – تاريخ المدارس في مصر الإسلامية (د عبد العظيم رمضان) صفحة ٦٦ [الجامع الأزهر ودوره في نشر الثقافة العربية الإسلامية – الأستاذة الدكتورة سيده إسماعيل كاشف]

١٥ – كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين تأليف العلامة أبو الحسن الندوي

١٦ – كتاب سيرة القاهرة للمؤرخ البريطاني ستانلي لين بول

١٧ – كتاب – القاهرة رحلة في المكان والزمان – تأليف عرفه عبده علي –تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

١٨ – كتاب عبد الرحمن زكي، بناة القاهرة في ألف عام، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦

١٩ – كتاب تجار القاهرة في العصر العثماني – سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار – تأليف د نللي حنا – ترجمة وتقديم د رءوف عباس – الناشر الدار المصرية اللبنانية – الطبعة الأولي ١٩٩٧م